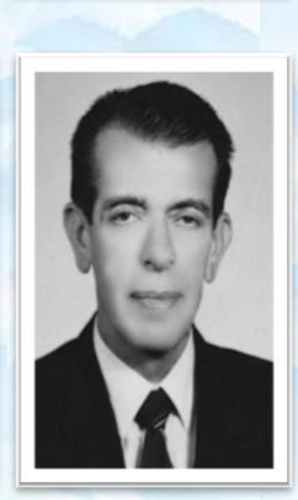
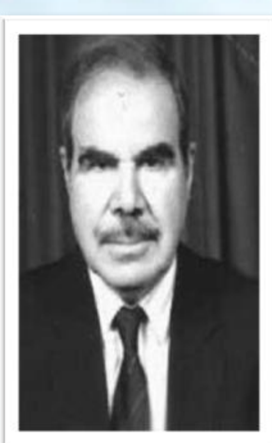
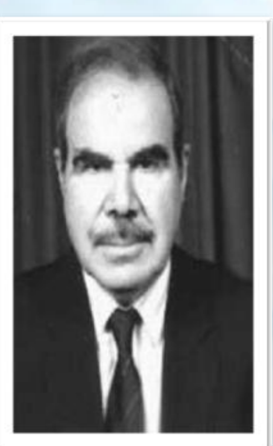
صَفحاتٌ من تَاريخ

حزب البعث العربي الإشتراكي في سورية

لقاء مع الأستاذ حافظ الجمالي









منشورات الطليعة

1992

شهادات حول تاريخ البعث في سورية
لقاء خاطف مع الأستاذ حافظ الجمالي
من الرعيل الأول للبعث في سورية

الزمان والمكان :31 تموز عام 1989ـ دمشق

أجرى المقابلة : د. مصطفى دندشلي

من هو حافظ الجمالي ؟ ملخص السيرة الذاتية :

مفكر سوري عاش حياته مهموماً بقضايا الإنسان العربي ومستقبله، عرفته أوساط التربية والتعليم معلماً وموجهاً، وإدارياً مخلصاً، وعرفته الجامعة في رحاب كلية التربية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي أكاديمياً مرموقاً، كما عرفه عالم الفكر والبحث والتأليف كاتباً ومترجماً دؤوباً قدم للمكتبة العربية الكثير من المؤلفات .

ولد حافظ الجمالي عام 1916بمدينة حمص في حي الفاخورة، نشأ في أسرة حمصية معروفة ، والده الشيخ عبد الفتاح الجمالي خطيب وإمام جامع البازرباشي في حمص، والمدرس العام فيه.

كان "حافظ" واحداً من ستة أخوة ذكور أربعة توزعوا بين العمل في التجارة ومتابعة التحصيل العلمي، وكان نصيبه بعيداً عن التجارة، وفي العام 1923 دخل مدرسة منبع العرفان الإبتدائية بحمص ونال شهادتها عام 1928، ثم انتقل إلى تجهيز حمص فبقي فيها ست سنوات، وعام 1934تخرج فيها ناجحا في البكالوريا القسم الأول، وانتقل بذات العام إلى دمشق ومعه أسرته ليدرس في تجهيز دمشق ويحصل على القسم الثاني "فرع الفلسفة" من البكالوريا .

وفي مطلع 1935 بدأ حياته العملية بالتدريس بمدرسة خاصة بدمشق، وفي الوقت ذاته واظب على الدوام في دارالمعلمين العليا، ثم صدر قرارفي 1936/10/3 بتعيينه معلماً في مدرسة "منبع العرفان" بحمص، وفي 1936/10/31صدرت نتائج مسابقة كان تقدم إليها للإيفاد إلى فرنسا والحصول على إجازة في الفلسفة، وكان مقبولاً فيها فقطع عمله في التعليم، وسافر لباريس، وهناك لم يقتصر نشاطه على الدراسة بل انخرط في أجواء العمل السياسي الوطني ، وقد عرف عن الجمالي مساعيه في باريس لإحياء رابطة الطلاب السوريين التي عملت في تلك المرحلة على الدفع عبر الرأي العام والبرلمان الفرنسي نحو التصديق على المعاهدة السورية الفرنسية.

وفي تموز1939قبل اندلاع الحرب العالمية بشهر عاد "حافظ الجمالي" إلى سورية يحمل شهادة في الفلسفة ، وفي مطلع العام الدراسي عين أستاذاً للفلسفة في ثانوية "المأمون" بحلب إلى جانب أساتذة كبار" مثل "زكي الأرسوزي"، "حميد الأنطاكي"، "عمر يحيى " وآخرين ، وفي 1943/11/23 عين أستاذاً في تجهيز البنين بدمشق وبعد عامين عين مفتشاً للتعليم الابتدائي ، وفي عام 1948 نقل الأستاذ "الجمالي " إلى الإدارة المركزية في وزارة المعارف كرئيس للدائرة وعضواً في لجنة التربية والتعليم.

وبعد أقل من عام على عمله في الوزارة نقل لجامعة دمشق وعين أستاذاً في المعهد العالي للمعلمين " كلية التربية حالياً، وبعد أيام من تعيينه هذا قررت الوزارة إيفاده مع الأساتذة "سامي الدروبي، نعيم الرفاعي" لمتابعة دراسة الدكتوراه في اختصاصات تربوية، وفي 1949/10/15 يعود مرة ثانية لباريس ليلحق بجامعة السوربون كي يحّضردكتوراه في التربية ، بإشراف أستاذه " ميرلوبونتي" بعنوان " الآثار النفسية والإجتماعية والتربوية للفصل بين الجنسين في سورية".

أثناء وجوده في باريس تعرف بفتاة حمصية أحبها ثم تزوجها 1953 وهي السيدة "سعاد عزنك" التي أنجبت له طفلة أسمياها "سها"، وربما أثر زواجه على سرعة إنجازه في الدكتوراه لكنه لم يمنعه من المتابعة فترافق ذلك بانتقال أستاذه المشرف لجامعة أخرى فأصبح الإتصال به صعباً، ولم يكن ممكناً إيجاد أستاذ مشرف بديل لأن ذلك كان يعني العودة إلى نقطة البداية، وبعد تقييم الموقف استدعته وزارة المعارف فعاد لسورية دون أن يحصل على الدكتوراه ، والتحق هو بكلية التربية أستاذاً بلا كرسي، وزوجته مدرسة للغة الفرنسية في مدرسة تجهيز البنات.

بتاريخ 1960/1/16 رفع الأستاذ" الجمالي" إلى أستاذ كرسي في كلية التربية لمادة علم نفس الطفل، وكان ذلك تكريماً له على جهوده من قبل عميد الكلية الدكتور " جميل صليبا"، الذي لم تجد الكلية بعد تقاعده خيراً من الأستاذ " الجمالي" لتختاره عميداً لها في 1964/7/1».

لم تتوقف حياة " الجمالي" على العمل التربوي بل بعد مضي خمسة أشهر من تسلمه عمادة الكلية اختاره رفاقه القدامى الذين أصبحوا في السلطة سفيراً في السودان، ثم بروما، وبعد ثمانية سنوات من العمل الدبلوماسي عين وزيراً للتربية في حكومة " محمود الأيوبي"1972، لكن المقام لم يطل في هذا المقعد فبعد تسعة أشهر تم تعديل وزاري، وبعدها أحيل للتقاعد مبكراً قبل الستين، حيث تفرغ للكتابة والترجمة وحلقة الأصدقاء، وكان منهم " بديع الكسم، حكمت هاشم، سامي الدروبي، شوقي بغدادي ".

في تموز1975 اختير الأستاذ " الجمالي" رئيساً لإتحاد الكتاب العرب وبقي لمدة عامين.

عام 1981 اختير عضواً في لجنة تحكيم أفضل كتاب في الإتحاد ، وبقي لسنوات عضواً في هيئة تحريرعدد من المجلات والصحف الفكرية والأدبية التي كانت تصدرها وزارة الثقافة واتحاد الكتاب العرب ».

كان " حافظ الجمالي" المفكر والتربوي قد عاش في المساحة الطولى من عمره حياة المعلم الباحث والمفكر أكثر بكثير مما عاش حياة السفارة والوزارة، وكأنه لم يخلق إلا للبحث والكتابة والتأمل، فقد الف وترجم ستة وخمسين كتاباً ، وكتب مئات المقالات نشرها بدءاً من الثلاثينيات من القرن الماضي في بيروت بصحيفتي " النداء والمكشوف"، وفي صحف ومجلات سورية كثيرة"المعرفة، الفكر العربي، شؤون عربية "، وقد جمع بعضاً من مقالاته في ثلاثة كتب هي" حول المستقبل العربي، بين التخلف والحضارة، عربي يفكر"، كما ألف تسعة عشر كتاباً معظمها كتب مدرسية وجامعية"ماوراء الطبيعة، الوسيط في المنطق، الأخلاق، بين التربية وعلم النفس " وغيرها حول شخصيته الفكرية والتربوية قال الدكتور " فخر الدين القلا" تلميذه وزميله : «كان الأستاذ " الجمالي" متأثراً بسخرية سقراط، وأفكار " جان بياجيه"، ويعتبر نفسه تلميذاً له في علم نفس الطفل».

وكتب" شوقي بغدادي"في ذكرى رحيله : «كان الأستاذ " الجمالي" وديعاً لطيفاً يحسن الإصغاء والصمت بقدرما يحسن الكلام، كان يصغي للآخرين كأنه لايعرف شيئاً، وحين يأتي دوره في الكلام إذا به أعرف منا جميعاً ».

عاش" حافظ الجمالي" حياة متواضعة، شريفاً نزيهاً، لم يحن رأسه يوماً، ولم يطغه المنصب، ولم يغوه المال، حتى تقاعده الذي حصل عليه من اتحاد الكتاب العرب تبرع به لأيتام حمص، وفضل أن يعيش سنواته الأخيرة في عزلة إختيارية وهدوء.

هاجمه المرض فجأة شيخا في السابعة والثمانين، فأسعف إلى المشفى حيث اكتشفْ وجود ورم خبيث، مالبث بعد أيام قليلة أن أغمض عينيه ، ورحل بهدوء بعيداً عن ضوضاء هذا الزمن في 2003/11/9م، لتختتم رحلة حياته الطويلة المفعمة بالعطاء والنضال، ونقل بناء على وصيته ليدفن في حمص التي أحبها حباً مختلفاً حيث لم تفارق صورتها مخيلته يوماً .



* * *

س : أستاذ حافظ ، أنا سعيد جداً بمقابلتي لك وأشكر لك هذا الاستقبال لي ، الاستقبال الصادق ، وتشجيعك لكي أتمّم البحث حول حزب البعث العربي الاشتراكي . وبما أنكم تُعتبرون بحق من مؤسسي البعث ومن الرعيل الأول ، لذلك أرى بأن المقابلة معكم لها نكهة خاصة ، لها أهمية مميَّزة فأتمنى أن نتعاون معاً لكي نوضح ، قدر الإمكان وقدر المستطاع ، ما يمكن أن نسميه بـ" الحقيقة التاريخية ". فإذا سمحتم سؤالي الأول أطرحه عليكم كما يلي ، وهو : أن تحدثونا عن ما يمكن أن نسميه بالهوية الشخصية .

ج : نشأت في مدينة حمص ، وكان لدينا في حمص مدارس ثانوية وابتدائية . والثانوية الرسمية كانت وحيدة . ويوجد إلى جانبها مدرستان ثانويتان ، واحدة للبروتستانت يسمونها المدرسة الإنجيلية ، وواحدة للروم الأورثوذكس ويسمونها المدرسة الاورثوذكسية . ولكنها كانت مدارس طائفية . أما المدارس الرسمية فكانت لكل الناس . لكن تعَّود المسيحيون بشكل خاص أن لا يأتوا إلاّ نادراً إلى المدارس الحكومية ، وكانوا يفضلون أن يذهبوا إلى مدارسهم الطائفية ، مع دفع " بدلات " دراسة ، أي مصاريف الدراسة ، على حين أن المدرسة الرسمية كانت تأخذ قسطاً قليلاً جداً ، رمزياً . لكن هذه تقاليد ، وهي مرعية عندكم منذ مدة طويلة وأظنها حتى الآن مرعية إلى حد كبير . لا شك في أن اختراق هذه العادة ، يتم أكثر فأكثر . ولكن لا تزال المدارس التي حدثتك عنها (المدارس الطائفية) موجودة وأظنها تكبر . وأنا لم أراقبها منذ مدة بعيدة ، ولكن أعرف أنها موجودة وأنها محتفظة بقوتها . يعني لا تزال الرواسب التقليدية للطوائف قائمة وموجودة رغم كل التطور الذي حظينا به ....

س : بكلام آخر ، كيف يمكن أن تعطيني صورة عنه التكوين الطائفي لحمص ومنطقتها....

ج : في حمص كالعادة ، يوجد أكثرية إسلامية سنِّية ، وإذا كنت أتحدث طبعاً عن الطفولة التي كنت أعيشها في حمص ، فالاكثرية يومئذ إسلامية سنِّية . وكان فيها أقلية صغيرة جداً من الروم الكاثوليك . لكن كان لهم مطرانية . وكان هناك أقلية أصغر بكثير من البروتستانت. وهذه الطائفة قليلة العدد إلى الدرجة التي لا يمكن الحديث معها عن طائفة ذات وزن . لكن هناك بعض الشخصيات ، بعض الأسر البروتستانتية ، ولكنها ليست بالعدد الكافي لتفرض نفسها كطائفة، حتى إنني شخصياً لا أعرف إذا كان لها في الماضي معبد معيّن ، كنيسة معينة ... يجب أن يكون لها شيء من ذلك . ولكن ، كما تعلم ، إن البروتستانت يكتفون بكنيسة (معبد) بسيطة بدون أي جمال خاص أو أي أسلوب خاص ، ولا يزالون كذلك في كل العالم على ما أعتقد . فهم يفضلون البساطة . المساجد عندنا ، بالعكس ، مزركشة أكثر ، فيها فخامة أكثر . البروتستانت يرتضون أي مكان كمعبد لهم ...

أما الطائفة الكبرى للمسيحيين فهي الطائفة المسيحية الاورثوذكسية ، كما هي الحال تقريباً في أكثر أنحاء سوريا . ولكن في حلب وحدها ، وهذا الرأي مهم جداً ، الطائفة الكاثوليكية هي ذات الأكثرية . وبالتالي ، " حدث " (أي ظاهرة) موجود فعلياً ، واستغربه دائماً . لكن لم أجد أي فرصة لدراسة أسبابه . أما بين المسلمين ، فأقول إن الأكثرية سنِّية ، ولكن كان يوجد عدد قليل جداً من العلويين. ذلك أن العلويين نزحوا تدريجياً منذ عام 1925. في عام 1925 أصدرت فرنسا قانوناً للإصلاح الزراعي . وقضت بموجبه أن يعطى كل فلاح قطعة من الأرض ، إذا لم يكن يملك أرضاً . وأيضاً تساهلت في شروط الدفع ، بحيث إن الأرض التي تعطى للفلاح يدفع ثمنها على عشرين سنة . والثمن في الأصل رمزي . لكن يجب أن لا ننسى أن الأراضي التي أُعطيت هي أراضي أملاك للدولة . وهي بصورة عامة قليلة المطر . وسوريا جملة مطرها قليل جداً جداً، ما عدا قسم الساحل ، مطره قليل ، غير أن أعلاه يصل إلى 400 ملم في السنة، وهذا ينشئ مواسم جيدة . ولكن ، كلما ابتعدنا عن البحر ، وبصورة خاصة مثلاً على بعد 130 كلم شرقاً ، يمكن أن نقول : ينقطع هبوط المطر ....

المسافة ، يعني المسافة العامودية ، إذا صح التعبير ، بين بيروت وبين دمشق هي 100 كلم ، مع كل طبعاً المسافات والمنعطفات الموجودة . أما منذ أن نصل إلى دمشق ونمضي وراءها خارج منطقة القطاع عشرة كيلومترات أو 15 كلم ، فإن الفلاحة تنعدم والبادية تظهر بوضوح ، وتمتد هذه البادية من أطراف الشام حتى أطراف العراق . وإذا ذهبت إلى حمص أو إذا ذهبت إلى حماه ، فكل اتجاه نحو الشرق يصلك مباشرة نحو البادية . وإذا كان يوجد مثلاً شيء من الخضرة أو ما يسمى " بالهلال الخصيب "، فذاك بفضل نهر العاصي ، بطبيعة الحال ، وبقية أنهار من هنا وهناك . لكن اعتباراً من مسافة 30 كلم شرق حمص ، قلما تجد زراعة . وهؤلاء الفلاحون هم العلويون الذين هاجروا من جبال عالية وحصلوا على أرضٍ ، شرق حمص ، أي في بادية مبدئياً، في أراضٍ قليلة المطر . ولكن يحدث باستمرار أن تكون هناك سنوات جفاف وهي الغالبة وأن تكون هناك سنوات سمان وهي النادرة ، إلاّ أن محاصيلها هي القمح والشعير والذؤة وما شئت من الحبوب ، محاصيلها ممتازة إلى درجة بعيدة جداً . يعني أنه لا يمكن للإنسان أن يأكل حنطة أفضل من الحنطة التي تأتي من هذه المناطق الشرقية القريبة من البادية . هناك بيننا وبين العراق، يوجد بادية كبيرة مزروعة بعدد من قرى بسيطة ، ومشهورة أيضاً . مثلاً يوجد قرية اسمها "القريتَين "، كما كنا نقول " القريتَين ". قريتان علوية ومسلمة ومشهورة بالتين وبالعنب . ويوجد أيضاً قريتان مسيحيتان ، واحدة اسمها " صدد " وهي في الغالب بروتستانتية ، والثانية اسمها "الحفر "، وأظن أنها من نفس النوع بروتستانتية ولكنني لست واثقاً . لكن هذه وُجدت كبقايا لقرى قديمة كانت تعيش على السقي أو على مياه يؤتى بها من مكان بعيد ، وبفضلها تعيش هذه القرى الصغيرة نسبياً ، إلا أن الزمن حطّم الأقنية وبقي شيء قليل منها . ومع ذلك لا يزال أهلها فيها . بلا شك ، نزح مَن نزح ، إلا أن السكان تعايشوا بشكل مناسب مع ضعف خصوبة الأرض ، مع قلة الثروات الزراعية وأصبحوا صناعيين تقليديين : أي حرفيين يدوياً . مثلاً هم مشهورون بصناعة العباءات ، مشهورون بالبُسط ،

مشهورون بالسجاد ، مشهورون بالعمل اليدوي ... يعني تلاءموا ، رغم قلة ثرواتهم ، تآلفوا مع الظروف وأضافوا إلى الحرف الزراعية ، قليلة الموارد ، مجموعة مهن يدوية ، هم بها مشهورون حتى يومنا هذا . وعندما مُدِّنت صناعة السجاد أيضاً ، هم أخذوها على عاتقهم وشاركوا فيها ، ولعل أكثر السجاد التي تنتجه سوريا الآن ، هو من صناعة هذه المناطق .

أما طوائف أخرى ، فأنا لا أعرف أنه وُجد في يوم من الأيام أي يهودي في حمص ، إطلاقاً. أما الإسلام من جهة ، وإما العلويون من جهة ثانية ، ومعهم المسيحيون بأنواعهم المختلفة: البروتستانت والكاثوليك والروم الأورثوذكس بالدرجة الأولى والأورثوذكس لهم كنيسة أكبر وهم العدد الأكثر من المسيحيين ، شأن كل سوريا كما قدَّمت ...

س : سؤال بسيط ، في تلك الفترة التي تتحدث عنها، عدد سكان حمص ومنطقتها تقريباً!

ج : نعم ، كان يوجد في حمص بالذات حوالي 90 ألف نسمة . لكن المنطقة التي حولها، مع أنني لا أعرف تماماً كم (عدد سكانها)، لكن أظن أنها لا تتجاوز تسعين ألف أيضاً . لقد كان لها ، لحمص وضواحيها ، كان لها خمسة قرى ، أي القرى زائد المدينة ، كانت تشكل منطقة انتخابية واحدة .

س : من الناحية الاجتماعية ، ومن الناحية الاقتصادية الزراعية ، هل يمكن أن نتحدث عن إقطاع في حمص ومنطقتها ؟... وذلك بالمعنى الاجتماعي وبالمعنى السياسي ....

ج : المعروف أن منطقة حمص ذات إقطاع ، وعرفت الإقطاع . ولكنه محدود جداً . والسبب في ذلك أن نهر العاصي يمر جانباً على أطراف البادية ، والباقي كله بادية . والمعروف أن الأراضي التي يمر فيها العاصي ، كانت أراضٍ مملوكة للإقطاعيين والأملاك الأخرى ، كانت أملاكاً في البادية ، إذاً مردودها قليل جداً . لذلك فإن الإقطاع الحمصي ، إنما هو إقطاع ضعيف ، بالمقابل مع إقطاع حماه ، فإن الإقطاع الحمصي يُعتبر ضعيفاً جداً ، لأن مناطقه الخصيبة قليلة جداً ، بالمقارنة مع حماه حيث مناطقها الخصيبة أكبر بكثير من مناطق حمص . ذلك أن العاصي يخترق مناطق قريبة من حماه وإلى مسافة طويلة وبالتالي يُمكِّن الإقطاعيين من أن يملكوا قرى ذات موارد مائية محترمة . ومن هنا، مثلاً ، عُرفت أسر مشهورة جداً في حماه حتى الآن طبعاً : الكيلانية ، البارازية وهذه من أقوى الكتل لأنها كانت تملك أراضٍ بالدرجة الأولى فيها ماء ، في حين أن إقطاع حمصي كان يملك بعض مناطق الماء ، يضاف إلى ذلك أن القسم الأكبر من المملوك هو أراضٍ بادية ، إذن ذات محصول ضعيف . ومن هنا يقال فلان إقطاعي ، بمعنى أنه يعيش من زراعة أراضيه ، أي يعيش بصورة أفضل طبعاً من العائلات الموجودة في حمص . هذا التويجر أو هذا التاجر بلغة حمص قديماً ، فقد كانت التجارة متواضعة دوماً في مثل هذه المناطق . ولكن لا يمكن القول بأنه يعيش عيشة فسيحة ، عيشة هنيئة ، عيشة مملؤة بالمال ، أو أنهم من الإقطاعيين الأغنياء . كان وزنهم العائلي أكبر من وزنهم على مستوى المِلكية الزراعية .

س : وزنهم العائلي : ماذا تقصدون ؟...

ج : بمعنى تأثيرهم السياسي في البلد ، باعتبارهم من جهة ينقاد لهم الناس ومن جهة ثانية يرئِّسونهم من زمن قديم ، يعني كانوا يرشحون في الانتخابات النيابية قسماً منهم ليكونوا وزراء أو نواباً . أو قَلَّ أن لا تجد بين النواب ، أو بالأحرى قَلَّ أن تجد بين النواب شخصاً عادياً من أسر متواضعة . هذا لم يحدث إلاّ بعد عام 1927 ، أما قبل ذلك ، فكانت دائماً الأسر (العريقة)، عائلة الدروبي، عائلة الدندلي ، عائلة الجندي ، عائلة الأتاسي، إلخ... هذه هي العائلات التي كانت تملك المناصب القيادية على مستوى الوطن السوري ، فقد كان للناس ثقة بهؤلاء القادة (النخبة العائلية) ويرئسونهم دائماً . وكان الحزب المسيطر ، والذي هو ليس بحزب فعلاً ، ولكن تجمع سياسي عاطفي ، شخصيات عائلية عاطفية كبيرة ، وهو ما صار يسمى بـ"**الكتلة الوطنية** " التي كان يتزعمها هاشم الأتاسي . وهاشم الأتاسي رجل وصل إلى منصب الوالي في العهد التركي . ولما جاء الملك فيصل ، انتخبه رئيساً للوزراء وبالتالي المجموعة التي اشتغلت مع الأمير فيصل أي مع الملك فيصل فيما بعد ، هذه المجموعة أنشأت الكتلة الوطنية التي قاومت الاستعمار خلال مدة وجوده هناك .

س : ... فإذن ، القوة السياسية المسيطرة هناك كانت الكتلة الوطنية .

ج : الكتلة الوطنية، وهي مؤلفة من أشخاص عملوا تحت لواء هاشم الأتاسي وهم من الأسر الكبيرة والكريمة .

س : هل هناك غير هؤلاء الأربع أُسر الذين عددتهم ؟...

ج : إضافت إليهم ولكنها أسرة متأخرة ، وهي أسرة آل السباعي . هذه الأسرة كبيرة العدد ولكنها لم تكن غنية وبالتالي كان الإقطاعي الأغنى ، يعني العائلات الإقطاعية ذات الغنى النسبي ، أبرز كوجود سياسي من العائلات الأخرى الكثيرة العدد ، ولكنها دون نفوذ مادي ، أي مالي . ولكن فيما بعد ، واعتباراً من عام 1947 ، صار لهذه الأسرة شيء من النفوذ ، لأنها تُعدّ مثلاً حوالي أربعة آلاف ناخب . إن أسرة السباعي تضم لوحدها أربعة آلاف ناخب ، بمعنى أن كل واحد من آل السباعي ، إذا رشّح نفسه للانتخابات ، فهو يملك رصيداً تلقائياً وطبيعياً وعفوياً ولا تعب له فيه ولا جهد ، هو يملك هذه العاطفة العائلية التي تحمل الناس من أسرة واحدة على تفضيل ابن العائلة على غيره .

س : بهذه المناسبة ، في رأيكم ، كانت العائلة والعصبية العائلية ، تلعب دوراً اجتماعياً سياسياً؟...

ج : واللّه . قَلَّ ما شعرت به فعلياً . لكن في بعض المناسبات ، كانت تبدي وزنها . مثلاً، إذا وجد مَن يخالف في الرأي ، في الرأي الوطني مثلاً آل الأتاسي ، مثل هذا الإنسان كان يتعرض للضرب ، لكن بصورة نادرة فعلاً . وإنه في كل حياتي لم أشهد حادثة من هذا النوع إلاّ مرة واحدة : يعني ، شخص ، شيخ ، لكن أثّر (..)

فيه وجعله ذا اتجاه شيوعي . وفي يوم من الأيام ، مرت جماعة ، من شباب ، واعتدوا عليه وهو في القهوة . وبطبيعة الحال ، كانوا من أسرة واحدة . إذاً ، كان هناك سيطرة يُشعر بها ضمنياً . ولكن ، ليس من عادة الناس أن يتجرأوا على أسرو معيّنة ، لأن عادة العصبية العائلية عند الإنسان تلعب دورها . لكن لم تكن غليظة الوجود ، ولم تكن تُشعر الناس بثقلها ، بثقل دمها . كانت محتملة جداً ومقبولة جداً والناس يتقربون إليها بشكل تلقائي والعواطف العائلية موجودة ، هذا كل ما لدي لقوله ...

س : بعد الكتلة الوطنية ، بعدها نشأ حزبان أساسيان : الحزب الوطني وحزب الشعب .

ج : لا ، في لحظة مبكرة ، تقريباً من أوائل الثلاثينات ، نشأت **عصبة العمل القومي** ، وكان من رجال هذه العصبة مثلاً صبري العسلي ، مثلاً أحمد الشرباتي دمشقيان . وكان فيها شخص محامٍ لامع جداً من آل الدندشي ، الدندشي من نفس الأسرة التي تنتمون إليها . ويبدو أنه كان ذا وزن محترم جداً ، لأن موته على أثر اصطدام الحافلة الكهربائية التي كان فيها ، بعامود كهربائي ، أثناء نزوله أو صعوده إلى الحافلة ، قتله الذي تم بهذه الصورة، كانت له هزة عاطفية في الجمهور العام للناس .

س : ... هل تعتقدون أنه كان هناك اغتيال لا حادث ؟...

ج : لا أظن ، الحادث طبيعي ، لأنني لم أسمع إطلاقاً بأنه وُجد مَن يغتاله ، ولم يقل ذلك أحد ولا حدثني أحد من الناس بهذا الأمر . لكن كانت ردة الأسى التي خلفها ، كبيرة جداً . هذا ، وفي حمص انتشرت عصبة العمل القومي . وبصورة عامة ، كل الأحزاب التي تعرفها سوريا ، كانت عددياً ، أقوى ما يمكن أن تكون في حمص . مثلاً ، الأخوان المسلمون أقوى ما يكونون في حمص . الرأسان ، كما نقول ، أو القرى المسيحية والعلوية ، كانت تتأثر كل التأثر بحزب أنطون سعادة ، بحزب السوري القومي الاجتماعي ، كما كان يُسمى . إذا كنت تذهب إلى مدرسة مسيحية أو قرية مسيحية ، فتعرف مباشرة أن فيها عناصر كثيرة من الحزب السوري القومي. في مدينة حمص كان ضعيفاً . ولكن في أطراف حمص كان قوياً . الأخوان المسلمون كانوا كثيرين في حمص . الكتلة الوطنية كانت كبيرة . عصبة العمل القومي أيضاً كانت كبيرة . ما من حزب عرفته سوريا ، إلاّ وكان له ممثلون في حمص ، ممثلون بارزون جداً .

س : من ناحية الأعضاء ، قواعد الأحزاب ، ما يميّز حزب من حزب ، ما يميّز قوة سياسية من قوة سياسية . بمعنى آخر المنتمون إلى عصبة العمل القومي هل يتميزون من الجماعات الإسلامية أو من الكتلة الوطنية ، وبماذا ؟...

ج : لا ، عصبة العمل القومي ، كانت في مدينة حمص تمثل ، أو أن عناصرها من أكثرية إسلامية سنِّية ، عناصرها في الغالب من الأكثرية السنِّية . الكتلة الوطنية كانت تستقطب أكثر الناس : من مسيحيين ومسلمين ، بطبيعة الحال . لكن الحزب القومي السوري كان يمثل الأقليات في الدرجة الأولى ، المسيحية والعلوية . حزب البعث أثناء نموّه عرف انتساباً كبيراً من الطوائف العلوية وقليلاً من الطائفة المسيحية . إذاً ، كان كبيراً في أوساط العلويين ، صغيراً في الطائفة المسيحية . هذه المسائل لم تكن تعنينا إطلاقاً ، إطلاقاً . وأظن أن هذه طفولة . لقد كان ينبغي أن نتعظ بالتاريخ، بالإسلام الذي أسلمت به أقوام كثيرة . ولكن بدا تاريخياً أن العاطفة القومية أكبر من العاطفة الدينية . مثلاً ، عندما استولى العباسيون على الحكم ، الفرس هم الذين أيدوهم . ومنذ أن وصل العباسيون إلى الحكم ، وصل الفرس إلى الحكم أيضاً وبالتالي سيطروا عليه مدة طويلة إلى أن جاء آخرون ، فحلوا محلهم أقوام أخرى : الأكراد أو الأتراك إلى آخره .

س : ... نعود إلى عصبة العمل القومي ، انتشارها ، وفي أي أوساط اجتماعية انتشرت؟...

ج : ... البورجوازية الصغيرة ، بمعنى أنه لم يكن فيها عضو من العناصر العائلية الكبيرة في حمص طبعاً . ولكن في الشام ، كان يوجد عدد من شباب الأسر الكريمة ، أي التجارية الغنية ، " الإقطاعية ". كان ينتسب إليها وقد حدثتك عن أحمد الشرباتي وصبري العسلي . هذان الإثنان انقلبا فيما بعد على العصبة . كما لو أن عبد الكريم الدندشي عندما مات ، أحدث فراغاً كبيراً في حزب العصبة . وجعل الناس ينصرفون عنها تدريجياً ن ولا سيما وأننا وصلنا إلى عهد الاستقلال وأصبح الحكم في أيدي الأكثرية التي هي **الكتلة الوطنية** . وحزب الشعب لم يعرف وجوداً إطلاقاً قبل عام 1947. وكان ذلك على أساس تزاحم النفوذ بين شكري القوتلي ممثل الكتلة الوطنية كنائب أو كشخص بارز بالنيابة ، فقد حل محل هاشم الأتاسي باعتبار القوتلي كان أكثر شباباً وكان دمشقياً ، استطاع أن يضمن الزعامة في الكتلة الوطنية ، ففرض نفسه حتى على القرى السياسية والمدن الأخرى : على حلب وعلى حمص وعلى حماه ، إلخ ... إن التكتل الذي سمي الكتلة الوطنية والذي كان يقوده هاشم الأتاسي حتى نهاية العهد الفرنسي ، أصبح يمثله بعدئذ شكري القوتلي . ولكن ، هذا لم يمنع طبعاً هاشم الأتاسي أن يبقى شخصية بارزة وأن يُرشح أيضاً كرئيس للجمهورية ، بعد شكري القوتلي .

س : ... صحيح ، إذا كنا قد أشرنا إلى دور عصبة العمل القومي في منطقة مثل منطقة حمص . كيف يمكن أن توضح قومياً : أفكاراً جديدة قد بلورتها . هذا جانب ، والجانب الآخر ، دور الأرسوزي : هل كان الأرسوزي موجوداً في حمص في فترة من الفترات ؟....

ج : كلا ، كان موجوداً دائماً في إنطاكية والإسكندرون ، وإنطاكية بشكل خاص ، ولم يتركها إلاّ عندما دخل الأتراك إلى لواء الأسكندرون . أنه ناضل أو مثّل النضال الوطني في أرقى صوره وأعنفها أيضاً . وبرز زكي الأرسوزي يومئذ ، كما لو أنه نبي منزل ، لقد كان مسموع الكلمة إلى أبعد حد في منطقة إنطاكية . لا ننس أن زكي الأرسوزي علوي ، وأن منطقة إنطاكية، أي الاسكندرون وإنطاكية وكل القرى المحيطة : وهناك سهل فسيح ، بمعنى أنه عندما أقول سهل إنطاكية ، كما لو كان هناك قرى عديدة وديمغرافياً أعداد كبيرة من الفلاحين ، بالإضافة إلى أهل المدينة ، فهؤلاء جميعاً من أكثرية علوية ...

س : من أكثرية علوية ، ما كان هناك مسيحيون ، أو مسلمون ؟...

ج : كان ولا يزال المسيحيون هناك وسنّة على قلة ، أي أنه تماماً على نقيض ، نقيض الذي كان فيما بعد ... يعني الأكثرية السنِّية كانت في البلاد الأخرى وفي القرى المجاورة لها ، وخاصة في السهول ، وكل ما هو سهل فهو سنّي . كلما وصلنا إلى الجبال ، وجدناها أمكنة تعتصم فيها الأقليات . مثلاً جبل الدروز هو للدروز ، جبل العلويين هو للعلويين . الخروج من الجبل لدى العلويين ، كان نتيجة الإقطاع الزراعي عام 1925، ومن قبله لم يكن هنالك أي علوي خارج المنطقة العلوية . إنصافاً لزكي الأرسوزي ، نقول إنه مثّل المقاومة الوطنية بأرقى أشكالها...

س : إننا سوف نحكي عن الأرسوزي فيما بعد . عصبة العمل القومي إذن استقطبت البورجوازية الصغيرة ، والمثقفة ، ويمكننا أن نقول المثقفين عموماً ؟...

ج : ... المثقفون ، الشباب جداً : الذين هم في عمر المثالية الطبيعي ، مثلاً كل ذي 16 ـ 17 ـ 18 ـ 20 سنة من العمر . هؤلاء كانوا ينتسبون في فترة معينة إلى " **العصبة** " التي لم يدم وجودها في الواقع أكثر من عشر سنوات .

س : الكتلة الوطنية ، بعد الكتلة الوطنية التي انبثق عنها تياران لعبا دوراً أساسياً : الحزب الوطني وحزب الشعب ... فمن منهما الذي سيطر في حمص ؟...

ج : كان المسيطر حزب الشعب ، اعتباراً من عام 1947، لأن القطيعة بين الحزب الوطني وحزب الشعب إنحاز إليها هاشم الأتاسي الذي لم يكن ولا في يوم من الأيام رئيس حزب الشعب . ولكن إبنه كان عضواً بارزاً في حزب الشعب .

س : مَن هو إبنه ؟...

ج : إبنه عدنان الأتاسي . ومن هنا سيطرت على الانتخابات ، اعتباراً من سنة 1947 الكتلة الوطنية . والكتلة الوطنية بزعامة هاشم الأتاسي والتي انحازت إلى حزب الشعب : فقد صار أكثر النواب وصار الوجه التقدمي من النواب يمثلهم حزب الشعب والذي هو في الأصل من الكتلة الوطنية .

س : ... هل بقي نفوذ أو أي نفوذ ولو ضعيف للحزب الوطني في حمص ومنطقتها ؟..

ج : تقريباً ، لا !!...

س : والمنافسة السياسية وبخاصة في فترة الانتخابات، كانت تقع بين مَن ومَن من القوى السياسية ؟...

ج : كانت تقع بين حزب هاشم الأتاسي أي حزب الشعب وكان بالمقابل حزب الكتلة الوطنية يرشح جماعته ، ولكن كان مغلوباً باستمرار . لقد كان هاشم الأتاسي يسيطر معنوياً على كل الجماهير تقريباً ويجعل حظ النجاح للنيابة لغير العناصر المنتسبة إلى تياره حظاً قليلاً جداً.

س : وما هو دور القوى الحزبية الأخرى التي اتيتم على ذكرها ، مثلاً الأخوان المسلمون ، الحزب القومي السوري ، عصبة العمل القومي ، إلخ ...

ج : الأخوان المسلمون ، يمكن أن نقول إنهم يمثلون الرأي العام التقليدي في البلاد . هم مسلمون وأكثرية الناس مسلمون . إذن يمكن أن نقول إن جميع الناس ، بمعنى ما ، هم إخوان مسلمون ، ورغم أنّ الإخوان المسلمين نظموا أنفسهم كحزب . إذن ، لم يستقطبوا إلاّ جماعة قليلة، اعتباراً من عام 1947، كان في وسعهم أن يقفوا دون ترشيح أحد النواب أو أحد مرشحيه . مثلاً في عام 1947، فرضت على هاشم الأتاسي أن يسحبني من قائمته ، الإخوان المسلمون فرضوا ذلك على هاشم الأتاسي ، لأنني كنت مرشحاً في قائمته . وبعد عدة أيام زارته وفود من طرفَين متناقضَين من الاخوان المسلمين من جهة ومن الشيوعيين من جهة ثانية ، وهكذا سُحبت من القائمة . وذلك اعتباراً من عام 1947، صار لحزب الأخوان المسلمين من جهة وصار للشيوعيين من جهة ثانية ، وزن سياسي .

س : لم تذكروا شيئاً عن الحزب الشيوعي ، وعن الشيوعيين في منطقة حمص !!

ج : الشيوعيون في حمص ، على الرغم من أنهم يمثلون حزباً عالمياً وضد القوميات ومع الدولة المثالية التي يزول فيها كل أثر للطائفية والمذهبية والدين وإلخ ... لكن عملياً ، كان أعضاؤه من الأقليات . إننا نسمع أن فلاناً هو من الحزب الشيوعي ، ولا يخطر في بال أحد مثلاً أنه ليس من السواد الأعظم من الأمة . لكن نكتشف تدريجياً أن القسم الأكبر من الشيوعيين هم من الأورذوذكس، لماذا ؟... لأن بلادنا كانت خاضعة للنفوذ الأجنبي ، وكانت فرنسا تحمي الكاثوليك. وكانت روسيا تحمي الأورذوذكس . إذن ، بما أن روسيا تغيَّرت من مبدئها " رومانوفي "، إذا صح التعبير ، من " قيصري " إلى المبدإ الشيوعي ، فأصبح الأورذوذكس بطبيعة الحال ميالين إلى كل حزب يمثل روسيا . فهذا الحزب يمثل روسيا طبعاً وقد انحازوا إليه . ثم الآخرون الذين كنا نظنهم مثلاً من سواد الشعب ، عرضاً نعرف بأن هذا الشخص ، تركماني الأصل ، الأم تركمانية، الأب تركماني ، ولكن قبل التمذهب الحزبي ، كانا مغيبين في الجماهير . الآن بعد أن ظهرت الأحزاب ، صارت المناسبة بسيطة وكافية من أجل أن يتميّز كل إنسان بحسب انتساباته العائلية ، بحسب انتساباته القومية ، إذا صح التعبير ، وهذا ما جرى مرات عديدة في الواقع . هذا لا يعني طبعاً بأنه لم يكن في الحزب الشيوعي أو لا يوجد فيه أصلاً أي سنّي : كان يوجد فيه ، ولكن الأعداد الغالبة ، كما برهنت على ذلك كل الانتخابات ، الكل هناك حزبي شيوعي في القصّاع ، الكل في بلاد القصّاع ، وفي باب توما والقصّاع ، كانا يصوّتان للحزب الشيوعي بأكثرية ساحقة .

... القصّاع وباب التوما حيّان مسيحيان . وحيّ الأكراد الذي هو حيّ خالد بكداش ، أمين عام الحزب كان يصوّت أيضاً للحزب الشيوعي . إذاً كان واضحاً أن هذا الحزب اللا قومي يعبّر فعلياً عن اتجاهات هنا في سوريا ، لا قومية ، بمعنى أنه نقيض الأكثرية .

س : هنا ، خلينا نفتح هلالين ، ونقول باقتضاب ، باختصار : ألا يمكن تفسير ذلك بأن الحركة الوطنية عموماً كان مسيطراً عليها وفيها الاتجاهات العروبية التقليدية ذات النكهة الإسلامية ؟... فكان هذا الاتجاه يخيف بوعي أو بدون وعي الأقليات الدينية أو القومية المثقفة ، الأقليات وخاصة منها الفئات المثقفة . فحتى تستطيع أن تلعب دوراً وطنياً سياسياً في بلدها ، فلم تجد أمامها سوى الأحزاب الأممية أو الأحزاب العلمانية صراحة ...

ج : ولكن الأكثرية من المثقفين هم من السنِّيين . هؤلاء لم ينحازوا إلى الحزب الشيوعي. لقد كانت بالفعل ، كما قال يوماً ما، الشيخ مصطفى السباعي : الشيخ مصطفى السباعي كان زعيم الإخوان المسلمين في حمص أولاً ، ثم صار مقره في الشام ، وصار زعيماً بجدارة حقيقية للإخوان المسلمين ، وكنت صديقاً له ، وكان يقول لي : إن حزبكم : حزب البعث ، **متنفِّس للطائفية** . لذلك تجد فيه الدروز وتجد فيه الأكراد ، وتجد فيه العلويين وغيرهم ، بمعنى أن حزبنا أيضاً قد ابتلي بنفس المشكلة . كان حزباً قومياً ، يُعلي **العروبة فوق كل شيء** . إذن، عناصر ذات الأصل غير العربي، قلما تنحاز إليه ، فتنحاز إلى الحزب السوري القومي أو تنحاز إلى الشيوعية. الأحزاب ذات النفس اللا قومي أو ذات النفس اللا ديني ، بمعنى اللاّ سنّي ، إذا صح التعبير ، كانت تجد متنفسها في أحزاب تمثل ، رغماً عنها ، سمة بين الأقليات . وكان حزب البعث ضمن هذا التطور ، ضمن هذا المنطق . ولكنه لم يكن يعيه ،ذلك أنه حزب في الأصل نشأ قومياً : يعني لا يعنيه دين فلان ، أو دين فلان ، يعنيه أنه عربي . أما غير العربي ، فكثيراً ما أدخلنا " شركس" وأدخلنا أكراداً في الحزب . لكن كان هؤلاء متأثرين إما بالإسلام مثلاً ، فحزب البعث يمثل الإسلام بمعنى ما ، وإما متأثرين بانصهار قومي وشعور عربي بعيد المدى ومن مدة طويلة هم في البلد . بمعنى أنه لم يعد الكردي يفرّق نفسه عن أبناء الأمة ، عن الأكثرية ، ذات الأكثرية الإسلامية السنِّية . لكن إجمالاً كنتُ أشعر أنا شخصياً ، أنه عندما يدخل الشركسي ، هذا غير طبيعي (!!). عندما يدخل الكردي في حزبنا ، مع كل الترحيب به ، لكن هذا غير طبيعي . كنا فرحين بذلك ، أي أن تيارنا القومي العربي هو غالب ، لكن لم نأخذ أي عبرة من التاريخ ، وهذه العبرة هي أن العنصر القومي يلعب دوره دائماً . وإذا تغالب مع العنصر الديني، فإن القومي هو الغالب ، والآن بصورة مستمرة . يمكن أن نقول إن جميع الأقليات في العراق هي باتجاه شيوعي أو باتجاه أحزاب أخرى غير قومية . هذا شيء طبيعي . بينما مثلاً الشيعة كانت تدخل في سوريا وفي العراق بسهولة جداً في حزب البعث والذي لعبت الدور الكبير في حزب البعث العراقي اثناء الحرب مع إيران ، هم عناصر الشيعة . في الحرب العراقية ـ الإيرانية الأخيرة طبعاً . هم (الشيعة العرب) ضد إيران ، مع أنها شيعية. إذن أي حرب قومية تشعر رأساً فيها بانفصال الدين عن القومية وبغلبة القومية على الدين، وليس العكس .

س : في ما يتعلق بهذه الناحية ، عندي سؤال أخير : هل كانت تُعرف مدينة حمص ومنطقتها بالعنف السياسي في المناسبات السياسية الوطنية ، في الانتخابات مثلاً أو غيرها ؟!...

ج : نادراً جداً ، نادراً جداً ما تقع حوادث أو اصطدامات أو ما أشبه ذلك ...

س : ولا عنف اجتماعي ، طبقي ؟!...

ج : إطلاقاً ، إطلاقاً ، يمكن القول بأن العنف لم تعرفه سوريا إلاّ خلال عهد قصير جداً جداً ، هو عهد الديمقراطية الذي دام بعد الاستقلال قرابة ثلاث سنوات ، تبعتها أربع سنوات هي التي سبقت قيام الوحدة . أي تلك التي تلت سقوط حكم الشيشكلي وسبقت الوحدة . هنا بدأت بعض مظاهر العنف (السياسي والاجتماعي)، وهي قليلة جداً . أما من قبل ، فكان الناس متعاطفين فيما بينهم . وكانوا بسطاء ، طبيعيين ، على الفطرة ، سذجاً ، بمعنى لم يكن العنف السياسي معروفاً لديهم إطلاقاً . وأظن أن أول حادثة من العنف السياسي كانت بين الإخوان المسلمين وبين الشيوعيين ... في حمص وفي الشام أيضاً ولكن على قلة ...

س : لو حاولنا أن نقوم بمقارنة ما بين حمص وحماه ، فيبدو أنه في حماه ، العنف السياسي والاجتماعي كانا ظاهراً وبارزاً . فكيف نقارب هذه المقارنة ؟...

ج : نعم ، إن حزب الشباب الذي تزعمه أكرم الحوراني ، كان يحمل الوجه التقدمي العربي . إذاً ، انحاز إليه علويون وهم قريبون جداً من حماه . لأن العلويين كانوا قرويين وكانت قراهم مملوكة للإقطاعيين . إذاً ، كان طبيعياً جداً جداً أن ينحازوا إلى أكرم الحوراني لأنه ضد الإقطاع . ولما كانوا فلاحين وأكثرية القرى كلها من العلويين ، شيء طبيعي أنها تنحاز إلى أكرم الحوراني، وأيضاً تنحاز ضد الإقطاعيين الذين كانوا يسيطرون دينياً واجتماعياً وحضارياً على مدينة حماه . وهناك فئات يمثلون الوجه الإقطاعي ، أي الوجه اللا تقدمي .

س : هل كان هناك تمركز علوي قوي في حماه ؟...

ج : لا !... ليس في حماه بالذات ، وإنما في أطراف حماه ، لأن حماه هي محافظة يحدها علويون من الغرب ، من منطقة الغرب ، لكن على امتداد واسع . وهؤلاء كانوا يمثلون مع حماه منطقة انتخابية ، دائرة انتخابية واحدة . إذاً ، كان المسلمون في قراهم كفلاحين ، ينحازون إلى أكرم الحوراني، كما ينحاز العلويون في قراهم أيضاً لأكرم الحوراني ضد الإقطاعية الكردية البرازية مثلاً ، أو الإقطاعيات الأخرى ، ذات الوجه الرجعي . هذا طبيعي جداً .

س : هل كان القانون الانتخابي يجري على أساس طائفي ، تمثيل طائفي أم لا ؟!...

ج : كان يؤخذ بعين الاعتبار التمثيل الطائفي . كان يقضي في حمص أنه لا بد من ممثل عن المسيحيين .

س : ليس ، دستورياً ، إنما جرت العادة ، أو بالعرف ...

ج : أظن أن الدستور كان يحتم ذلك: في حلب أيضاً كان لا بد من وجود شخص أرمني. لأن الطائفة الأرمنية كبيرة جداً أيضاً . لا أدري إذا كنا في الشام ننتخب أيضاً من يمثل اليهود . أظن أنه كان يوجد من يمثل اليهود ، أظن ، لأن الطائفة اليهودية لم تكن موجودة إلاّ في حلب والشام فقط ، ويجب أن يكون هنا وهناك لها ممثل . لكني لا أذكر على الضبط ، لأني لست من هاتين المنطقتين الانتخابيتين ، لا أذكر ، إلاّ أنه في الشام ، على ما أعتقد ، كان هناك مَن يمثل الطائفة اليهودية . أما الأرمن بالتأكيد وخاصة في حلب لأنه تجمع كبير .

س : نعود ، بعد هذه الجولة الشاملة ، نعود إلى البدايات الأولى للبعث . فسؤالي الأول : متى انتسبتم أو ما هي الظروف التي اخترتم فيها البعث وانتسبتم إلى حركة البعث العربي ؟... ولكن قبل ذلك ، أنتم من مواليد أي سنة ؟...

ج : عام 1917 .

س : فما هي ظروف البدايات الأولى ؟...

ج : ... هي الآتي ، نحن طلاب . أساتذتنا ....

س : أين ، طلاب أين ، في حمص ؟...

ج : في حمص أو في الشام . نحن طلاب ، عرفنا ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار من خلال كوننا طلاباً . الحقيقة ، أن ميشال عفلق كان أستاذي وصلاح الدين البيطار عرفته في حمص كأستاذ علوم ورياضيات محترم . فميشال عفلق لم يكن يعجبنا إطلاقاً كمدرس . بل في ذات يوم أضربنا عن دروسه، وكان لا بد من تدخّل المدير ، حتى يستقر المُقام له كمدرس تاريخ. لكن هذا في السنتين الأوليتين في تدريس ميشال عفلق الذي كان ذا نَفَس أدبي واضح جداً ، من كتابة قصة قصيرة وأيضاً من ناظمي الشعر . وشعر ميشال عفلق ، شعر ممتاز وحديث، في أحلى معاني الحداثة . والحقيقة ، أن هذا الجانب من شخصية ميشال عفلق ، لا أدري لماذا غُمض حقّه ولم يظهر . وهناك فئة من الناس أحاول معها أن أحصل على نماذج من شعره . لكن مجلة "**الرسالة**" نشرت له أكثر من مرة شعراً، مجلة "**الرسالة**" لأحمد حسن الزيات، نشرت أكثر من مرة شعراً لميشال عفلق ، وكان بالفعل واضح التميّز بالنسبة إلى كل ما كنا نعرف من الشعر : واضح التميز ، كحدوس متألقة ، مشعّة ، ذات وهج ، ذات حرارة . أي أنه أديب بالمعنى الحقيقي للكلمة، سواء أكتب أم نطق بالشعر . ولكن هذا لم يكن ليدخل في درس التاريخ ، بطبيعة الحال . إنما بعدنا ، بعد الجيلين الأولين اللذين درسا عليه . صار يُغمض تدريس التاريخ ويحدِّث الناس بقضايا الوطن والقومية العربية ، إلخ ... وأخذ تلاميذه عند ذاك ينحازون إليه كما ولو كانوا عشاقه .

وفي يوم من الأيام ، أذكر أنني كنت في الشام ورأيت لا أدري أي مجلة نشرت مقالاً لشخص معروف الآن اسمه نزيه الحكيم ، وكان في هذا المقال يترجم أفكار ميشال عفلق القومية ويشرحها . ولكنه قد كان وكأنه حدث إنساني ، وكأنه زلزال ، كأنه شيء عظيم . هذه المجلة الأسبوعية، كان يتخاطفها المثقفون . والذي قرأ المقال بدا وكأنه متميّز على مَن لم يقرأه . وكان من الواضح والمعروف أنه يقول صاحبه كلام ميشال عفلق ، ولا يزيد على أنه ينقله فقط . ومن هنا اكتسب نزيه الحكيم سمعة كبيرة ، لأنه كان ترجمان أفكار ميشال عفلق . وقد حلّ محله بعد ذلك بكتابة الأفكار ، أفكار ميشال عفلق ، لأنه كان قريباً منه بديع الكسم . إذاً ، هذا النوع من الوهج الذي تلقاه ، مثلاً ، مقالة تقول آفاق ميشال عفلق ، كان يشير بوضوح إلى أن العاطفة القومية تتوهج في الصدور ، موجودة قائمة ، كبيرة . والأكثرية في حزب البعث في الشام والأكثرية من حزب البعث في حمص نفسها هي سنِّية، ولكن الضواحي الحمصية ، مثلاً ، علوية. فلذلك كثر الانتساب إلى البعث من العلويين في الضواحي، وحزب البعث في الشام كذلك ، لأنه "**حزب شامي**". في حين أن الطلاب كثيراً ما يفدون إليه كمقبولين مجاناً مثلاً في المدارس الحكومية (في التجهيز الأولى) أو كمنتسبين إلى الجامعة . كانوا أيضاً محسوبين على فرع الشام . في حين أنهم من القرى ، وغالباً كانوا علويين (!!!). أو كان قسم كبير منهم من العلويين (أو من انتماءات طائفية ومذهبية متنوعة). كانت الغوطة بالفعل عسيرة علينا (على حركة البعث).

س : الغوطة " سنِّية "؟!...

ج : ... لأن النفوذ الديني الإسلامي كان فيها غالباً ، وبالتالي كانوا يتأثروا بجمعية العلماء المسلمين، يتأثرون بالإخوان المسلمين ، وبالدرجة الأولى بالدين التقليدي الموروث الذي يمثله العلماء أو جمعية العلماء المسلمين .

س : لذلك حزب البعث في بدايته الأولى ، لم يستطع أن يخرق هذه الحواجز .

ج : على قلة ، على قلة ... لقد كانت حادثة عظيمة أن ينجح الحزب في كسب مجموعة شباب من قرية من الغوطة مثلاً ...

س : فبدايتهم الأولى ، للبعثيين : متى تحددونها ؟...

ج : إذن ، من هنا ، انطلقت أفكار ميشال عفلق ، وليس لها طابع حزبي ، وصارت متوهجة بين الناس ، معروفة ، يتخاطفها المثقفون ، يتسمعون إليها ويناقشونها . وأنا بطبيعة الحال كنت أكتب، وكنت أقرأ ما يكتبه ميشال عفلق . وكان ينشر في مجلة " **الطليعة** ". وقبلها كان ينشر في مجلة اسمها **الثقافة** . مَن كان يصدرها ، لا أدري ؟!... لكن " **الطليعة** " كان يتعاون فيها شخص اسمه سليم خياطة ، وأنا في الواقع ، لم أعرف عنه في أي يوم من أيام حياتي شيئاً . وكان الذي يداوم في هذه المجلة، في الدرجة الأولى ، هو ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار . وكنت أنشر عندهم بعض مقالاتي . من هنا ، عرفت ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار

كأساتذة أولاً ، وثانياً كنت أكتب عندهم . وكان سروري كبيراً أني أكتب في مجلة يكتب فيها أعلام من نوع ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار وبعض الأساتذة الآخرين، مثل جميل صليبا، كامل عيّاد، إلخ.. وكان النَّفَس متَّجهاً بصورة تقدمية حتى قيل ...

س : (مقاطعاً) إنها ماركسية ...

ج : لا ، اشتراكية ، ولكن فيها مثلاً ميشال عفلق ، كان يكتب الكثير عن أندريه جيد . أدريه جيد كان في البداية ، طبعاً ماركسياً ولكنه عدل عن ذلك فيما بعد . لكن سرعان ما تحوّل (ميشال عفلق)، **وتحوّلت الأفكار التقدمية وانصهرت مع الفكرة القومية**، وبلغة أوضح، مع الوحدة العربية. وأنا شخصياً كنت ، لو لم يكن البعث موجوداً ، لكنت انتسبت إلى الحزب الشيوعي . لكن منعني من ذلك أمران : أولاً هذا الحزب ملحد وأنا في الواقع لا أؤمن بالإلحاد. ثانياً هذا الحزب أممي ، وأنا لا أشعر إطلاقاً بالميل إلى مجردات عامة من هذا النوع ، مهما طال عليها الزمن . لأنك ترى الآن كيف أن القومية تتحرك داخل الاتحاد السوفياتي ، رغم مرور حوالي 72 سنة على وجوده .

س : ... لماذا لم تدخلوا إلى الحزب السوري القومي ، وهو الحزب غير الملحد ...

ج : الحزب السوري القومي أولاً كان سورياً ، يعني محدود الهوية الطبيعية كغيره ولو ضم قبرص ولو ضم العراق . لكنه محدود في هذه المنطقة . أنا عربي ، ثانياً الحزب السوري القومي، كان ديكتاتورياً وأنا أكره من الأعماق كل ما يصبّ في قائمة الديكتاتورية . أي أن روائح الديكتاتورية من أيِّ مكان جاءت أكرها كرهاً دموياً ، كرهاً لحمياً ، كرهاً طبيعياً . كان حزب البعث يلبي كل مطالبي، أولاً تقدمي ، ثانياً قومي ، ثالثاً ليس ملحداً . هذا الاقتراب من الحزب كان اعتباراً من سنة 1936، من بذور الحزب ، كان بدأ من سنة 1936 كبذور .

س : ... إقتربتم إلى ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، كأساتذة ؟...

ج : نعم ، كأساتذة ، لكن أنا تركت سوريا من عام 1936 حتى عام 1939 وذهبت إلى فرنسا. وعندما عدت من فرنسا ، عاد الاتصال بالحزب ، لكن بجماعة الحزب المؤسسين ، يعني ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار . كان هناك مقهى أمام وزارة الداخلية الآن ، كان نهر بردى يشق الطريق إلى قسمَين : من جانب وزارة الداخلية وبمقابل وزارة الداخلية ، كان هناك مقهى يسمى "**الطاحونة الحمراء**"، مقهى داخلي ...

س : غير " الطاحونة الحمراء " الموجودة الآن ...

ج : لا ، لا ، غيرها . هذه الطاحونة الحمراء كانت مقهى كبيراً ، فيه بعض العتمة من الداخل . وكان يجتمعون فيها ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار وآخرون من الشبان حولهم ، هناك . وكنت دائماً معهم .

س : طبعاً ، كنتم تجتمعون معهم في الطاحونة الحمراء ؟...

ج : نعم، والحديث يدور إجمالاً حول أفكار الأستاذ عفلق وأفكار حزبية وقومية إجمالاً..

س : تقريباً ، بين أي سنة وأي سنة ، تقريباً ؟!...

ج : من سنة 1939 ـ 1940 حتى سنة 1943 ـ 1944 ...

س : بعدها ، ذهبتم إلى حلب ...

ج : ... لماذا كنت في حلب ؟... كنت مدرساً للفلسفة في حلب . وكنت آتي إلى هنا فقط من أجل حضور الامتحانات البكالوريا . أثناء ذلك ، كانت تمتد حوالي عشرين أو 15 يوماً ، إلخ... وذلك في السنة مرتان . إذاً ، كنا نعقد كثيراً من اللقاءات مع ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار في هذه المرحلة . وفي عام 1942 ، استقال ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار من التدريس وذلك بسبب الصدام مع الفرنسيين . في ذلك الحين ، كنت أشعر ، كنت أتساءل : الأستاذ ميشال عفلق ليس له مورد ، وصلاح الدين البيطار أيضاً ليس له مورد، فكيف يعيشان ؟... وأثناء اجتماعي معهما ، عرفت أنهما يحتجان على صعوبة مناهج التعليم وصعوبة الامتحانات التي يرونها عقبة أمام نجاح الطلاب وأمام تقدم المعرفة وحملة الشهادات في سوريا، فاحتجا على ذلك، احتجاجاً على نظام تعليم الفرنسيين أو على ممثليهم يومئذ في التعليم . في السنة التي تلت ، نُقلت إلى الشام وأصبحت مدرساً في الشام، وكانا قد استقالا . وفي تلك السنة التي نقلت فيها إلى الشام عام 1943ـ 1944 دراسة ، أقسمت اليمين وكان ذلك في بيت الأستاذ صلاح الدين البيطار ، الذي هُدم الآن ، ولم يعد موجوداً .

س : هذه كانت البدايات الأولى . عدد الشباب الذين كانوا يجتمعون في "الطاحونة الحمراء"، كم عددهم ؟...

ج : لا يتجاوز العشرة ، ولكن التلاميذ المحيطين بميشال عفلق ومتأثرين به ، هم كل تلاميذه الذين مروا ودرسوا عليه ، اعتباراً من سنة 1933 تقريباً حتى 1942...

س : بعد ذلك ، وضعه كمدرس ، هل تحسن الحال ؟...

ج : لا ، لا ، أبداً !!... اتجه ، وفي رأيي ، إلى تعويض عن عدم نجاحه ، بمعنى أنه لم يكن يشعر ميشال عفلق أنه **خلق مدرساً** ...

س : لماذا ؟... من الأهمية إلقاء شيء من الإيضاح والضوء حول الموضوع ...

ج : **خُلق كداعية ، كرائد ، كمفكر قومي ، كأديب ، كشخص متميّز** . أما أن يُلقي درساً في الثورة الفرنسية : متى بدأت ، وفي أي يوم مثلاً صاح " ميرابو " أُخرجوا ، ولن نخرج إلاَّ على الحراب !!... بمعنى مجريات الثورة الفرنسية ، ومجريات البرامج التاريخية التي كان مكلفاً بها ، لا أظن إطلاقاً أنه آمن يوماً ما بأنه مدرِّس ، أو أنه خُلق لهذا العمل . فانصب جهده في توجيه الطلاب قومياً ، وكانوا بالفعل يعبدونه . كان ميشال عفلق له وزن في الناس ، في الشباب وتأثير حاد إلى أبعد درجات الحرارة ...

س : كيف يمكن تفسير ذلك ، هذا التعلق به ، طبعاً له أسبابه ؟!...

ج : أنا أعتقد أن الجو العام هو جو قومي. ثانياً، طلابه يأتونه بعمر "**المثالية**"، فيه تكون طبيعية جداً . كما أن الشاب مثلاً ، يتفتح على الحياة ويفكر بالجنس مثلاً بشكل عاطفي ، بشكل مثالي ، بشكل علاقة محلِّقة بمثاليتها ، كذلك تتولد عنده **المثالية الاجتماعية**. من هنا يأتي قرف من الأوضاع السائدة وحب طبيعي لتجديد ما هو قائم وقديم. وأظن أن هذا من نِعَم القانون ، لأنه سبيل التجدد في الحياة العامة. فكان ميشال عفلق بدعوته هذه، بأسلوبه ، بحرارته ، بنزاهته، كان يحرك كوامن مشاعر الطلاب إلى أقصى مدى ويجعلهم يتعلقون به ، تعلق الابن بأبيه أو الأخ الصغير بأخيه الكبير البارز جداً والذي يعجب به الناس جميعاً. والواقع أنه لم يكن ميشال عفلق يعجب فقط طلابه ، كان ما ينشره أحياناً كتابات كأدب ، كقصص أو كشعر ، كان يحوز إعجاب الجميع ...

س : هذا من ناحية القراءة أو الكتابة . كمتحدث ، هل كان يجذب ، هل كان جذاباً بأحاديثه ؟...

ج : كان ميشال عفلق بطيئاً جداً في كلامه . ولكن عندما يبدأ يتكلم ، لا أدري بأي صدفة ، كان يوجد دائماً مَن يكتب له ، مَن يسجل ما يكتبه . وكان بطء ميشال عفلق يساعد هؤلاء في الكتابة . فإذا جُمعت أحاديثه ، ولما كنت أحضر أكثر هذه الأحاديث التي لا يقولها على لسانه إلاّ نادراً . ولكن عندما يجتمع حوله مجموعة من الناس ، كان يخاطبهم بهذه اللغة ، البطيئة جداً جداً ، حتى إنها تبدو مزعجة من بطئها . مع ذلك ، عندما يكثر الأحاديث وتسمعه أنت يتكلم وتفكر فيه ، تجد أن فيه إشعاعات رائعة ، رائعة فعلاً . إذن ، يسيطر على عقلك ، ومن خلال سيطرته على عقلك ، يسيطر على عاطفتك . وهذا نموذج فريد .

س : كما فهمت أنه من الصعب أن يستمر السامع بمتابعة حديث الأستاذ ميشال عفلق !!

ج : كانوا يستمعون ، إنما الذين لا يعرفونه ويعرفونه لأول مرة ، الذين هم دون مستوى الفهم اللازم ، الإحاطة بمعاني ما يقول، كانوا بطبيعة الحال ، يرهقون بالإصغاء إليه . أما طلابه، أما المثقفون ، أما الواعون من الناس (الطلاب والمثقفون)، فكانوا يجدون أنفسهم أن ليس أمامهم إلاّ عاطفة واحدة ، وهي الإعجاب ، الإعجاب بالكلام والتعلق بصاحبه . وبالتالي ، أظن أنه من الزعماء الذين ملكوا قلوب الناس واحترامهم إلى أبعد درجة . أي أن مَن كان صاحب النفوذ في البعث إنما هو ميشال عفلق.

س : هل هو محاور ، مناقش ؟... هل شاهدتم ميشال عفلق يدخل في نقاش أو سجال حاد في حلقات نقاش ، كما تجري العادة ؟!...

ج : كان يجري في المؤتمرات مثل هذا النقاش، ولكن الحدّة كانت تنقص هذه المناقشات. والسبب في ذلك أن القيادة يومئذ تبدو بعيدة جداً عن أعضاء الحزب الصغار ولم يكونوا يثيرون مشاكل بسبب تشكيلات تنظيمات حزبية إلاّ بصورة نادرة . في أثناء مثلاً ، في الخمسينات ، من 1954 فما بعد ، صار البعث له وزيراً مثلاً ، صلاح الدين البيطار ، نجح كنائب ، إلخ ... في ذلك الحين ، كان طلاب الجامعة كثيرين ، وكانوا يثيرون مشكلات وكانوا يحاورون فيها وينتهي الحديث دائماً بالانضواء تحت راية الحزب أو على الأقل ، في أكثر الأحيان ، إذا بالغنا . إلاّ أنه دائماً كان يتمتع الأستاذ ميشال عفلق بالإصغاء الضروري وبحسن الإقناع .

وعندي أنا أن ميشال عفلق شخصية في الواقع تاريخية مهما تكن كتاباته متفرّقة أو متناثرة وبدون ناظم ، بمعنى أنها كثيفة أو تقرأه كمؤلف كتاب متكامل . ولكن عندما تقرأه في أي لحظة من اللحظات تجد فيه أن هذا الكلام ليس عادياً : هو دائماً فوق العادة، إنه لا يسفّ، يستحيل عليه الاسفاف .

أما صلاح الدين البيطار ، فهو رياضي، الحيسوب ، المنظَّم ، صاحب الفكر المتوازن المتصل ... ومثله الأعلى في الكتابة هو أن يقلد ميشال عفلق في لمعانه ، في حدوسه . والذي قرأ مثلاً المقالات الأولى في جريدة حزب البعث ، كانت الأولى لميشال عفلق ، وكانت الثانية لصلاح الدين البيطار والثالثة لجلال السيد . الواقع أفضلها هي الأولى : " ميشال عفلق "، والثانية تليها مباشرة لصلاح الدين البيطار والثالثة تليها ، على بعد ما ، كلام جلال السيد . ففي هذه المقالات ، على كل حال ، تبقى ذات قيمة بذاتها . إنني أنا شعرت بحاجة دائماً إلى قراءتها ، لو أنني رأيتها موجودة . من المؤسف أنني لم أعد اراها موجودة .

س :... في رأيكم، أنتم عاصر تموه وعشتم معه عن قرب. كيف كان يكتب ميشال عفلق.

ج : بكسل لا متناهي. حين تكون ثمة مناسبة ضرورية لإلقاء بيان ، يأتي صلاح الدين البيطار، فهو يعرف صديقه ميشال عفلق حق المعرفة ، يذهب وإياه إلى بلودان ، يستأجر له غرفة ويقول له : أنت هنا ، وهذا ورق وهذا قلم ، فاكتب . ويعود إليه بعد أسبوع ويسأل : هل كتبتَ شيئاً؟... ويرى أنه لم يكتب شيئاً . بقدر ما كان (ميشال عفلق) متحدثاً بارعاً ، عندما يجتمع الناس (الطلاب والمثقفون) حوله ، وطلقاً وعذباً ، كان في كتاباته كسولاً إلى أبعد درجة . إنما عندما يصدر شيئاً، كانت البيانات بالدرجة الأولى من صياغته . ولم يكن يجرؤ أحد على كتابة بيان يضاهيه هو . وآنذاك بالتالي كل قيادات الحزب يتنازلون له عند الكتابة وإعلان موقف الحزب ، فهم يشعرون بأنه أحسنهم . وكان يُلحّ عليه في ذلك ، وهو بطيء بالاستجابة. وكان في ذلك يسبب للأستاذ صلاح الدين البيطار أكبر قلق وأكبر أرق. لقد كان يبدي ضيقه بهذه الشخصية غير القادرة على النشاط كما ينبغي .

س : بالأحداث التي ينفعل معها وبها ، تثير في نفسه شيئاً ، وبخاصة في التعبير عنها في الكتابة ؟!... لأنني أنا لاحظت ، من أحسن ما كتب على صعيد الجمال الأدبي واللغوي والعاطفة الجياشة هو عام 1956...

ج : مرة واحدة في حياته مدح شخصاً ، في كل ما كتبَ ، وأن هذا **الشخص الوحيد هو عبد الناصر** . مرة واحدة كتبَ مقالَين في جريدة " **البعث** "، متتابعين ، ذلك أنه حضر الخطاب الذي ألقاه عبد الناصر وأمّم فيه القنال. وكان الناس كثيرين، وكان هو بينهم في مصر. وحضر الاجتماع . وجاء معجباً إلى درجة كبيرة ، تذكرنا معها كم كان هو يستهوينا . فإذا به هذه المرة ، هو **المستهوى** . ولأول مرة يكتب معجباً بشخص . وأنا أعرف بأنه كان معجباً بشخص الملك فيصل وبرجال الثورة العربية عام 1916 مثلاً ، وفي بعض زعمائها وبدون أدنى شك . لكن ما من واحد منهم قال ميشال عفلق عنه كلمة ، لا في الماضي ولا في الحاضر . في الماضي ، خصّ الرسول محمداً وحده . وفي الحاضر لا أحد إطلاقاً ، والوحيد ، الوحيد ، **الوحيد الذي سيطر عليه كل السيطرة هو عبد الناصر** في خطابه . فهل ترى في هذا الكلام ما يثير اهتمامك ؟...

س : يثير اهتمامي كثيراً طبعاً؟... شيء جديد أسمعه، والأهمية فيه هو أن يأتي منكم. ذلك أن، هنا ، ثمة ناحية تاريخية ، ناحية توثيقية . **أنا أهتم كثيراً** بهذه **المعلومات التاريخية "التجريبية " المعاشة** ، إذا صح التعبير ... ممكن أن أقول أنا الأشياء نفسها التي قلتها أنت ، وإنما بشكل آخر. ولكن ، صدقني وأقولها بصراحة، لمّا تقولها أنت ، يأخذ الكلام صفة تاريخية صادقة، تعطي صورة ، ترسم صورة معاشة . هذا هو الذي أنا أهتم فيه وأودّ معرفته . فإذاً الآن ، ننتقل إلى التكوين الاجتماعي ، الإيديولوجي لهذه المرحلة ، وخلينا نتوقف قليلاً عندها حتى لا نسلق المراحل ، بمعنى نتوقف عند مرحلة البدايات الأولى، حتى قبل عام 1947، قبل المؤتمر التأسيسي الأول : التكوين الاجتماعي والفكري لهذه المجموعة من الشباب التي تنمو فكرياً وقومياً من خلال الممارسة. كيف يمكن أن نحددهم اجتماعياً وأيديولوجياً ؟!... هناك نقطة سوف نرجع إليها لنأخذها بشكل شمولي : وهي أثر الطائفية والمذهبية في مرحلة التأسيس . إننا الآن لن نعالجها فقط في حمص ، وإنما بشكل شمولي ككل ...

ج : في الشام ، لم يكن هنالك أي مشاعر تُذكِّر بالطائفية من أية ناحية. وسبق تأسيس حزب لبعث " **حركة نصرة** " رشيد علي الكيلاني ، انتفاضة رشيد علي الكيلاني في العراق . والغريب أن أفتتح مكتباً، كان من المداومين عليه صلاح الدين البيطار وميشال عفلق . وكان الشباب يأتونه من كل مكان ، ليتطوعوا لنصرة حركة رشيد علي الكيلاني في بغداد . شخص ميشال عفلق ومعه صلاح الدين البيطار ، ليس هو أكثر من أستاذ مستقيل ويستطيع أن يمثِّل حركة قومية مناصرة ويلتف حوله فيها شباب بعدد رائع بالفعل. إذاً تفهم أن **العاطفة القومية** ، هذا **الرباط القومي** ، كان واضحاً كل الوضوح، في "**حركة طلاب ميشال عفلق**" الذين هم أيضاً تلاميذه فكرياً وعقائدياً . هذه حركة وقعت طبعاً في أثناء الحرب ، في أيام ثورة رشيد علي الكيلاني . **أنا لم أشعر يوماً ما بأهمية ميشال عفلق كرأي عام ، وهو الشاب ، كيوم أُفتتح هذا المكتب لنصرة العراق** . وصار له بسرعة شعارات وأشياء تميز المنتسبين له ، إلخ ... يعني بداية تأسيس حزب. ويومئذ، كان النقاش دائراً بين ميشال عفلق وبين محمد المبارك الذي كان يمثل الإخوان المسلمين، وميشال عفلق كان يمثل البعثيين . وهذان التياران متضادان مبدئياً ولكن كانت محاولة من ميشال عفلق لكي يكسب الإخوان المسلمين لجانبه . **الحقيقة أنه لم يكن يكره إطلاقاً الإخوان المسلمين** . وكلما ضقنا بهم ذرعاً وقلنا هؤلاء يزعجوننا ويؤذوننا ، كان يقول : **هؤلاء على كل حال يبقون من أهل البيت** ، يعني يبقون أعضاء في الوطن ، **من داخل الوطن** . أما الذين يكرههم فعلاً فهم الشيوعيون ... إن هؤلاء لا يعملون لخدمة قطاع القومية ، إنما لمصلحة لا قومية ، بمعنى أنه لمصلحة ليست لمصلحتنا: فكان هؤلاء يكرههم بما ينبغي يومئذ. إذن، فالأفكار آنطي ـ ماركسية، وبالتالي عدم إيمان إطلاقاً بمبادئ الماركسية . ولو أنه كان يتبنى الاشتراكية ، مع عدم الإيمان بالديكتاتورية . ولذلك نص **دستور** الحزب في المادة الثانية على أن الحزب يتبنى صيغة **حكم دستورية برلمانية وفيها حق الكلام وحق الاجتماع وحق الإعراب عن الرأي** ، إلخ ... وكل ما هو حرية ، ديمقراطية ، بمعنى أثر حقوق الإنسان ، إذا صح التعبير . هذا ما كان كل ما يضعه في هذه الكتلة من الشباب الذين حوله . إذن ميشال عفلق أنطي ـ ماركسي ، اشتراكي ، لكن اشتراكي ديمقراطي ، عصبية قومية اجتماعية ، وفي الوقت نفسه **إنساني** . يشعر أن إيقاظ الأمة العربية يجري لخيرِ الإنسانية وليس العكس . بمعنى لو أننا انحللنا وصرنا لا قوميين ، فلن نأتي بخير . ولكن كلما زدنا وضوحاً لأنفسنا وعبَّرنا عن خلفيتنا (التاريخية)، فهذا إغناء للإنسانية . هذه فكرة واضحة جداً في أفكار ميشال عفلق . هذه المجموعة من البعثيين إذن **ملتهبة عقائدياً ، ملتهبة قومياً، ملتهبة ديمقراطياً، ملتهبة حباً لحرية التعبير، ولكرامة الإنسان، ولتحرر الإنسان** . ومن هنا ، يمكن القول إن ما تشهده اليوم ويسمى بعثاً هو "أنطي ـ **عفلق** "، "**آنطي ـ بعث** " بكل معنى الكلمة . وعلى كل السطور والأثر ...

س : جذور هذه الأفكار أو عناصر الأيديولوجية للأستاذ عفلق ، أين تجدها ؟...

ج : هذه الأفكار أجدها في نَفَس أندريه جيد الذي تأثر به كثيراً . لكن في الدرجة الأولى أجدها أيضاً في **فلسفة الشخصانية Le personnalisme** هذه حكاية فلسفية تسمى باسم صاحبها (Mounier) " مونييه ". ومونييه هو الذي ترأس مجلة " اسبري " (Esprit). كان (عفلق) شديد المتابعة لها . طبعاً ، كل إنسان يتبنّى الثقافة التي نشأ فيها ونشأ عليها . وميشال عفلق ثقافته فرنسية ، لغته الفرنسية مكَّنته بأن لا يجد أي عناء في فهم الفكر الفرنسي. كان يقرأ بسهولة مثلاً ما يُكتب في الثورة الفرنسية . لكن من كل هؤلاء تأثره الأكبر هو بـ" **مونييه**". ونفهم الآن كيف أن حزب البعث يعكس إلى حد كبير آراء "مونييه ": من حيث احترام كرامة الإنسان في إعلاء شأن الإنسان فوق كل شيء ، في مثالية الإنسان ، في روحانية الإنسان . هذه الآثار التي تسمى "**فلسفة الشخصانية** "، هي في الواقع التي كانت تتضمنها العناصر الأولى بالنسبة إلى أيديولوجية حزب البعث وفلسفته .

س : هل هناك أفكار أخرى تأثر بها ، مثلاً ، النازية ، الفكر القومي الاشتراكي الألماني؟...

ج : ... النازية ؟!... لم يتأثر بها ميشال عفلق إطلاقاً ، إطلاقاً ، ولكنه كان يفهمها .

س : هل صحيح ، كما قيل ، بأنه كان يقرأ histoire du XX siècle ، كتاب الألماني Rosemberg العنصري ، لأنه قيل لي من الشام ، من أحد الأساتذة ، قال لي : أنا كنت أشاهده يقرأ كتاب Rosemberg .

ج : عرفت ..... ولو أنني لا أذكر الاسم الآن .

س : Rosemberg

ج : Rosemberg ، بالفعل كان يقرأ هذا الكتاب ، وكان ينصحنا بقراءته أيضاً . وبالتالي كل البعثيين يوماً ما ، من جيلي قرأوا هذا الكتاب ... لكن على اعتباره يمثل نزعة قومية. كان معجباً بالنازية من ناحية واحدة : إيمان هتلر أو النازية بالأمة الألمانية. ومن قبله بالفيلسوف الألماني فيخته مثلاً. هذا كله تيار قومي بمظاهر مختلفة . هذه كانت تؤثر فيه فعلاً ، لكن هذا التيار القومي لم يكن يشدُّه إطلاقاً إلى أي حكم ديكتاتوري ، أو أي حكم يسيطر باسم القومية أو إلى أي ملك يمثل الروح القومية وهو كل شيء فيها . كان لا يشدّد إلاّ على **الديمقراطية وحرية التعبير** . وعندما يكتب محاوراً خصومه ، إنني أظن أن هذا قد كان من الأحداث البارزة في تاريخ القومية وينبغي طبعاً على دارسي البعث ـ وتعرف بطبيعة الحال بأني الآن لا أخُص هذا البعث الحاكم في سوريا بأيِّ شيء من الاحترام والمودة . لذلك كنت قد استغربت منك في أن تبحث فيه وتجعله رسالة . لكن على الأقل المراحل الأولى لوجود البعث ، إنما هي جديرة بأن تُبحث وأن تُستقصى . ليس فقط مع الذين كانوا يعرفون وإنما لأنهم أيضاً ألصق مني ، الذين كانوا لصيقين بميشال عفلق أكثر مني ، بحكم المعاشرة الزمنية ، أي أنني لا أقول إن هنالك فلاناً أو إن فلاناً من الناس كان ألصق مني . ولكن بحكم المعايشة الدائمة معه . أنا في حلب وهم هنا في الشام . هؤلاء الذين مثل : بديع الكسم ، مثل سامي الدروبي ، مثل عبد الله الدايم، هؤلاء جديرون بأن يعطوا رأيهم في هذه النقطة بالذات أكثر مني . ولكن أنا أعرف أني تأثرت بالأستاذ ميشال عفلق عن طريق سامي الدروبي ، إذ كان تلميذاً أحدث مني له ، وكان يحبه جداً ، كشأن الطلاب جميعاً . وبالتالي هو الذي أراني كتاب Rosemberg وهو الذي جاءني بالكتاب . على كل حال ، لا يمكن أن نقول إنه بعد فرنسا ، فيما عدا " **مونييه** " و" اسبري "، لا نقول بأنه اطلع على الكثير من الكتب ...

س : ... هذا هو السؤال : هل يمكن أن نعتبر ميشال عفلق أنه قاريء أم أن الصورة عنه...

ج : (مقاطعاً) الانطباع الأول أو السمة الأولى عنه أنه ليس بقاريء . ويعود ذلك إلى أنه في الوقت ذاته قد أفلس (مالياً)، أي لم يعد معه ما يشتري به كتب . وأظن أنه من قبل ، كان قارئاً جيداً. الشيء الثاني ، أنه كسول في كتابة خطاباته ومقالاته بالطبع .

س : كسول !!...

ج : كسول فعلاً !.. إذن ، هذان أمران يجتمعان لجعله قليل الإطلاع : أولاً ، قليل القراءة. ثانياً ، هو قليل العناية بُغية الاطلاع على أحوال العالم ، وخاصة العالم المحيط به . مثلاً، يحدثني جلال السيد أنه ذات يوم ، في أحد الفنادق ، رأى جلال السيد القائم بالأعمال في سفارة العراق ، وهو من أسرة معروفة في العراق . وكنت أنا أعرف هذا الشخص . نزيه يوسف عواد . فسلم على جلال السيد . ولكن ميشال عفلق سأل جلال السيد : مَن هو هذا الإنسان ؟... أظنه وكأنه من بيت الراوي ؟... قال له : ألا تعرف مَن هذا ، قال : لا !... فقال السيد : هو قائم بأعمال سفارة العراق .... والمفروض أن الزعماء الحزبيين والسياسيين يهتمون بحكم قوميتهم بالسفارات العربية الأخرى ... جلال السيّد كان كثير الود لهؤلاء . وكان يعرف الكثيرين من الناس . ميشال عفلق مَن جاء ليعرفه ، فأهلاً به . ومَن لا يأتي إليه ، هو أزهد الناس به . إذاً له طابع ..

س : ... (مقاطعاً) هذه صفة قيلت لي ...

ج : يعني كأنها نوع من التعالي بدون تعالي ، نوع من الترفع ، بمعنى أنه ليس فيه عَدْوُ وراء الناس ، ليس فيه إقبال على الناس . لكن الذين يأتونه ، كانوا يتمتعون بكل الحفاوة ...

س : قيل لي أيضاً وبالحرف الواحد تقريباً : إن الأستاذ ميشال عفلق كان يُحصي محبيه وأصدقائه بعدد الزيارات التي يتلقاها ...

ج : جائز جداً ، جائز جداً ... والحقيقة أن طلابه وأصدقاءه كانوا كثيري التردّد عليه . أنا كنت قد سكنت فوق مقرّ الحزب تماماً . فلم يكن يمر يوم دون أن أراه وأرى صلاح الدين البيطار ... ونمضي ساعتين أو أكثر . كنت أيضاً من أعضاء القيادة الأولى ، أول قيادة لحزب البعث ، كنت فيها في عام 1943 ـ 1944. وكانت الاجتماعات تطول ، فنذهب إلى منزل صلاح الدين البيطار ونبقى من الساعة السابعة مساء إلى الساعة الثانية عشرة ليلاً . وأنا مدرس ، وبحاجة إلى وقتي لأحضّر دروسي. وهذا الشيء تقريباً يومي . فاضطررت إلى الاستقالة (من القيادة) بعد مدة ، لأني موظف بالساعات ، ولأني أستاذ ، ولأني أحب أن أعطي دروسي . أما الآخرون ، فكانوا مرتاحين من هذه الناحية : ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار مستقيلان من التعليم ، ومدحت البيطار طبيب، وهو ليس بحاجة إلى مطالعة طبيّة . وكأطباء منتهون فهم موجودون في كل الأيام تقريباً . الأطباء تنتهي قراءتهم عندما ينتهون من كلية الطب ...

س : أعود وأطرح هنا سؤالاً : أشرنا إلى أي مدى تأثير الطائفية في تكوين الحزب ...

ج : (مقاطعاً) ... التأثير في خارج الشام ، ولكن لا تأثير ...

س : لا تأثير !! ولكن الحزب في بدايته ككل ...

ج : ... (مقاطعاً) لا ، في بداية الحزب هنا ، في الشام ، لا تأثير طائفي إطلاقاً. لقد نشأ الحزب في البدايات الأولى وكان له عناصره والمحيطين به معظمهم من الشام في عام 1943 ـ 1944 ومن قبل أيضاً . كان ينتمي إليه حتى ذلك الحين عناصر ، ضمنياً ، عناصر (بعثية)، بدون يمين ، بدون قسم ، إلخ ... هم أنصار أفكار وآراء الأستاذ ميشال عفلق القومية. لمّا أُنشئ الحزب ، هؤلاء جاؤا وكانوا كلهم من تلاميذه في التجهيز الأولى في دمشق، وكان هؤلاء بالدرجة الأولى وبأكثريتهم مسلمين سنيين وأقليتهم القليلة مسيحيين . ذلك أنك دائماً تشعر بأن المسيحيين ضمن حزب البعث ، كانوا قلائل جداً .

س : ألم يستطع الأستاذ ميشال (عفلق)، كونه مسيحياً ، أن يجذب إلى حركة البعث في بداياتها الأولى المثقفين المسيحيين من الطلاب ؟!...

ج : لا ، لأنه كان قليل الاتصال بهم ، كان بعيداً عن الاتصال بهم ، بمعنى أنه لم يدرِّس في مدارسهم . طبعاً ، إنني أعتقد أنه لو درَّس في مدارسهم ، كان سيجذبهم كما يجذب الآخرين . ولكن كان بعيداً عنهم (عن الأجواء المسيحية) إجمالاً . مثلاً ، هو لم يحاول إطلاقاً أن يدرِّس في معهد "اللاييك"، مع أنه جدير بذلك كل الجدارة، باعتباره من خريجي فرنسا ويتقن اللغة الفرنسية، إلخ... لم يكن إطلاقاً (منجذباً أو ميالاً إلى الأجواء المسيحية) .

س : بمعنى آخر ، هنا أود أن أبدي إشارة مهمة ، أتصور ، وهي أن مسيحية عفلق لم تكن تعبيراً عن واقع المسيحيين في دمشق !!...

ج : لا ، لا ، إن تفكير عفلق القومي ، إنما كان تعبيراً عن واقع المسلمين حقيقة ...

س : كان تعبيراً عن واقع المسلمين ...

ج : نعم !... تعبيراً عن واقع المسلمين ، ودليل ذلك أن أول محاضرة ألقاها في مدرَّج جامعة دمشق عام 1943 كانت بعنوان " ذكرى الرسول العربي "، وليس ذكرى المسيح مثلاً .

س : هنا ، إذن ، يُفهم انتماء الأستاذ ميشال عفلق إلى الإسلام ، كما قيل ، واعتناقه الدين الإسلامي ...

ج : طبعاً ، هذا قد أذيع !... هل هذا صحيح أم لا ؟... لا يمكنني أنا أن أبتَّ في ذلك . لا يمكنني أن أبتَّ بصحة هذا الكلام . ولكن أميل إلى تصديقه .. إذاً ، أنا أصدق تماماً بأنه أسلم . أي أنني أنا أميل إلى تصديق هذه الإشاعة .

س : ... هذه ليست إشاعة ؟...

ج : على فرض أنها إشاعة . وعلى فرض أن القيادة الحزبية أو السياسية مثلاً ، زوَّرته، فأنا أميل إلى القول بأنه صحيح ...

س : لنعد إلى سوريا وإلى حزب البعث . فإذاً ، كما نرى بأن حزب البعث بقياداته ، لم يعر المشكلة الطائفية أو مشكلة الأقليات في الوطن العربي الاهتمام الضروري ، على الأقل ، النظري والفكري . مثلاً ، نعرف العراق : كان يعاني منذ وجوده هذه المشكلة ، أكراد ، شيعة ، سنّة . وكان هنالك كذلك مشكلة لبنان الطائفية وهي معروفة مشكلته الطائفية ، وفي المغرب العربي أيضاً المشكلة "البربرية". تفسيركم لهذه الناحية ، هل لأنه كان حزب البعث ، حزب قومي عربي . وهو يتصور ، كما يقول الأستاذ ميشال عفلق في هذا المقال : إن حلّ هذه المشكلة هو بانتشار الفكر القومي العربي وتحقيق الوحدة العربية العادلة التي تساوي بين المواطنين جميعاً ؟...

ج : كان الأستاذ ميشال عفلق لا يفرِّق بين الوحدة وبين ازدهار حضارة جديدة ، ينصاع إليها الجميع ويشارك فيها الجميع وتجذبهم هي بذاتها ، ليكونوا عناصر فيها . إذاً ، هذه المشكلة يحلها تطور اجتماعي . ولا يمكن حلّها بقرار ولا بأي قوة متعسِّفة . كان ينبغي لنا أن ننتظر عامل التطور المثقِّف والمُستنير والمضيء والمنفتح جداً ، بحيث يشعر جميع هؤلاء الناس (جميع المواطنين) بأنهم مطمئنون . وأصلاً انحدار الشعور الطائفي أو العرقي لدى الأميركيين جاء عن طريق الديمقراطية . بمعنى أنه كان يشعر كل إنسان ، مهما كان نوعه ، وعن طريق الديمقراطية ، أنه آمن ولا يخاف من أنه كاثوليكي مثلاً، أو بروتستانتي أمام كاثوليكي ، أو بالعكس ، وإنما حقوقه دائماً محفوظة في الغالب. المشكلة عندنا أنه لم يكن هنالك إطلاقاً إلاّ فترة صغيرة جداً من الحكم الديمقراطي دامت من عام 1946 إلى 1949 ، هي السنوات التي حكم فيها شكري القوتلي كوريث للانتداب الفرنسي ، فقط ثلاث سنوات . ثانياً ، سبب آخر ، وهو أننا يمكننا أن نحدِّد عمر البعث اعتباراً من عام 1945 حيث كان له مكتب ، قبل رحيل الفرنسيين بمدة قليلة ، كان له مكتب لأول مرة . ثالثاً ، عاش حتى عام 1958. إذاً جميع المدة التي عاشها ، كل المدة هي ثلاث عشرة (13) سنة . كيف يمكن خلال ثلاث عشرة سنة ، لحزب ناشيء ، أعضاؤه كلهم طلاب أو موظفون ، أن يغذّوا حركة تثقيفية قادرة على أن تجيب عن كل الأسئلة المطروحة ، ولا سيما مثل الأسئلة التي لها مصداقيتها . رابعاً ، خلال هذه السنوات الثلاث عشرة ، كان الحزب أغلب الأحيان مضطهداً : مثلاً في عهد شكري القوتلي ، كان مضطهداً ضمن جوّ ديمقراطي ، لكن كان مضطهداً على كل حال ، ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار وأعضاء البعث جميعهم ، إثناهما معاً حبسا في أيام شكري القوتلي ، وآخرون من البعثيين حبسوا أيضاً في أيام شكري القوتلي . لكن لم يكن هنالك هذا العسف الشديد . لقد كان يعتقل إنسان شهراً ، شهرين ، يحاكم بشكل أو بآخر ، يبعد ، يُنفى مدة محدودة ، ثم ينتهي الأمر . أما في أيام حسني الزعيم ، فكان العسف كبيراً. ومن حسن الحظ أنه لم يدم طويلاً . جاء حكم الشيشكلي ، أربع سنوات ، اضطهاد البعثيين أيضاً . ذهبنا من هنا ، خلال عام 1954 إلى عام 1958 ، قامت فئة الإخوان المسلمين من جهة وكان معها من قبل الشيوعيون ، لاضطهاد البعثيين ، ذلك أن الاضطهاد إما أنه كان شعبياً من جهة وحكومياً من جهة أخرى ، وإما كان ينطلق به الحكم أو فئات معينة من الشعب .

س : بمعنى آخر ، إن حزب البعث في تلك الفترة ، كان يقود معارك سياسية داخلية وخارجية متتالية ، لم تفسح له المجال لكي يتوجه إلى الأبحاث أو الدراسات النظرية والفكرية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ...

ج : ثم لم يكن له كغيره متفرغون ، ولا عنده مال ، ولا يملك " تغذية مادية ". يعني ، فرع دمشق الذي كنت أنا في تلك الفترة رئيسه ، كنت أسعد السعداء إذا جُمع في الشهر الواحد ألفي ليرة سورية، حتى إنني أقول مثلاً لشخص مثل عمر الحامدي الذي هو رئيس مؤتمر الشعب العربي الليبي، طبعاً ، وبعواطف عربية أخوية صادقة جداً ، جداً ، حتى يكثر من الهبات . هذا وكأن هنالك توصية بأن لا تنتهي ندوة قبل أن تكون ندوة أخرى قد تهيَّأت في الأفق أو تبعتها مباشرة ، وهي تتداخل . ضمن هذا الجو العنيف للتجمع ، أقول له : إن تكاليف ندوة واحدة أغلى من كل النفقات التي دفعها البعث ليصل إلى الحكم .

س : لماذا ؟...

ج : ليصل إلى ذلك . بمعنى أننا كنا فقراء جداً ولم يكن هنالك أية تغذية مالية وعندما غُذّينا أيام عبد الناصر ، قبل الوحدة بقليل ، غُذينا بمائة ألف ليرة سورية ، ثم جاءت الوحدة ، لم يسمع بخبرها أحد . وأظن أن الأعضاء لو سمعوا بخبرها لاستذكروها أشدّ الاستنكار . ولذلك كتمتها القيادة ، إلاّ أن كل الذي أنفق منها ، لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة سورية . وأعيد الباقي إلى السفارة المصرية، أو إلى ما يسمى المفوضية أو المندوبية المصرية في جنيف ...

س : أعيد المبلغ !!...

ج : أعيد المبلغ تماماً .

س : نعود الآن إلى الحديث عن شخصية أخرى : جلال السيّد ، هذه الشخصية متناقضة أشدّ التناقض ، ذلك أن الهجوم والمعارضة لجلال السيّد كثيرة منذ الخمسينات .

ج : جلا السيّد ، شخص كنت يوم التقيته لأول مرة ، بعد أن كنت أقرأ له في البعث ، ارتفع عندي إلى مقام عالٍ جداً . عندما التقيته في أول مؤتمر عُقد للحزب في حمص ، وحضره جلال السيّد وعجبت أنه من دير الزور ثم يضع " قبعة " على رأسه (على الطريقة الغربية). يعني ، في ذهني دير الزور وقبعة ، هذان أمران متناقضان . إن الشاميين قلما يفعلون ذلك . لا يوجد شامي يضع قبعة على رأسه . وعندما يضعها ، يستغرب الجميع ذلك . هذا الإنسان من دير الزور ويضع قبعة !!... ولكن مع ذلك ، كنت مليئاً باعجاب به . والحقيقة أحببناه جداً . وعندما طلب هو الاستقالة من الحزب واستقال فعلياً حوالي 1955 ، يعني إبان العمل السياسي الحزبي الذي وصل فيه الحزب إلى المشاركة في الحكم ، في ذلك الحين استقال .

س : لماذا ؟...

ج : إستقال لأنه كان على نوع من التناقض مع أكرم الحوراني . وكان غير حريص على أن تكون الاشتراكية ظاهرة في مبادئنا . لكن ، ما هي آراء جلال السيّد في هذا الموضوع ؟... آراؤه أننا اشتراكيون : ليكن ذلك !!... إلاّ أن وضع الاشتراكية في الدستور تعرقل انضمام العرب إلى الوحدة ، وسيقولون أنتم اشتراكيون ونحن غير اشتراكيين. ذلك أن هنالك ألف عقبة ضد الوحدة العربية ، فلنقلل منها ما شئنا . أما أن نضيف عقبة أخرى إلى عقبات الوحدة ، فهذا خطأ ...

س : ... ولكن ، هناك اتهامات أخرى ، أستاذ حافظ (الجمالي)، توجه إلى الأستاذ جلال السيّد، ملخصها بأنه كان على علاقة وثيقة بالعراق الهاشمي وبالحكم العراقي تحت الانتداب البريطاني، وذلك على فترات مختلفة ، وحتى بعضهم قال لي بأن نجاحه عام 1949 في الانتخابات النيابية في منطقة دير الزور ، كان بفضل الدعم الذي تلقاه من النظام العراقي آنذاك ، بدليل أنه عام 1954 لم يوفق فيما يبدو وفشل في الانتخابات النيابية التي جرت في ذلك الحين. على أي حال ، ثانياً ، كان يُتهم بانتمائه القبلي العشائري وتفكيره القبلي العشائري . ثالثاً قيل بأن سبب ابتعاده عن الحزب هو أنه كان على صلة بإحدى المؤامرات العراقية التي كُشف أمرها ضد سوريا والحكم في سورية . ما مدى صحة كل هذه الأشياء ؟...

ج : في دير الزور ، لا تزال القبلية موجودة ، أي أنه على الرغم من وجود مدينة ، لكن الأحياء المدينية منفصلة بعضها عن البعض الآخر وذلك على أساس قبلي . وكل إنسان له قيمة قبلية ، وهي التي تشكل البِنية الأولى لشخصيته . فإذاً ، ما نسميه نحن الشعور المدني السائد مثلاً في حمص، في حماه ، في حلَب ، في الشام ، الشعور المدني الخالص ، يعني الانتماء للمدينة وليس للقبيلة ، هذا غير طبيعي بالنسبة إلى دير الزور . أما أن يكون في شخصية جلال السيّد شيء من القبيلة ، شيء من العشائرية ، فهذا ممكن . وأما أن يكون فيه أيضاً نزعة وتعاطف مع الدين الذي ولد فيه ، وحتى مع المذهب الذي نشأ عليه ، فهذا أيضاً طبيعي . لا يعرّف الإنسان بأنه ابن هذا البلد أو ذاك ويحمل بعض رواسب عاطفية تصل بهذا البلد أو بهذا الدين أو بهذا المذهب ، وإنما الإنسان يعرّف بمطامحه. وجلال السيّد ، فيما أعتقد ، طموحه قومي ، بالدرجة الأولى . لكنه لم يغنه عن التأثر أيضاً بعاطفة قبلية ، طبيعية. وقد خدمت حزب البعث يومئذ، لأن مجيء جلال السيّد إلى البرلمان جرّ معه كثيراً من القبائل المجاورة الساكنة في الشمال إلى البعث. ثالثاً ، جلال السيّد من أذكى البعثيين ، وأرقاهم توازناً بدون أدنى شك . بمعنى أنه شخص لبق ، ذكي ، حكيم ، على أحسن ما يمكن من التفتح بالعواطف التي يسميها عواطف البحث .

لكن جلال السيّد يملك شيئاً من التعالي ، أي أنه يريد أن يُزار ، لا أن يزور ، يريد أن يُحب لا أن يحب ، يريد أن يُختلط به ، لا أن يختلط هو بالناس . وعندما يتصل يقصر اتصالاته على أجواء عليا . مثلاً ، يتعرف على سفير سعودي ، يتعرف على السفراء العرب ، لكن لا يتنازل إلى التعرف على عناصر بعثية أو أفراد حزبية مثلاً.

ولذلك، كان الحزبيون في دير الزور يكرهونه جداً، يكرهونه على أبعد الدرجات. وكان ينجح رغم أنفهم، هذا يعني أنهم كانوا بالنسبة إليه لا يمثلون شيئاً بالمرة. كما كان وهيب الغانم يستفيد من طائفته التي وضع نفسه في إطارها من غير أن يكون هو مؤمناً بها، لكنه كان يستفيد منها على كل حال.

كذلك جلال السيّد كان يستفيد من دَيْريته، أي من قبيلته ومن اتصالاته العليا التي رشحته إلى هذه لقبيلة بالذات. لأن العراق، أو إذا شئنا بتعبير أوضح، كل مَن هو في شمال سورية، لهجتهم أقرب إلى لهجة العراق. واتصالاتهم بالعراق كثيرة جداً. وإذا كانوا يتصلون مثلاً كجنسية سورية بدمشق رغم أنهم أحنُّ إلى بغداد الأقرب إليهم، والبدو الذين هم منهم، كانوا يرحلون ما بين سوريا والعراق، ولكن كل شيء في دير الزور كان يؤهلهم لأن يكونوا جزءاً من العراق وليس جزءاً من سوريا. جلال السيّد، إذاً، فيه صفات، لا شك في ذلك أن فيه صفات ممتازة جداً، وأظن أنها تمحوا كثيراً من العيوب. لكن، بلا أدنى شك، العيب الأساسي الذي شكى منه ولا يزال وسيموت وهو فيه، هو هذا النوع من الترفّع، هذا النوع من التعالي على الآخرين، ولا سيما البعثيين. مهما يكن الإنسان مثقفاً، ومهما يكن الإنسان الآخر بارزاً، ينبغي أن ينظر إليه كشخص أصغر منه وبالتالي ينبغي على هذا الشخص أن يُبرز له مثلاً ما نسميه " فروض الطاعة ".

خذ مثلاً الانضواء، هذا أمر لم يكن يعرفه ميشال عفلق، ولم يكن يعرفه صلاح الدين البيطار. ومن هنا تفرَّد جلال السيّد بهذا الأمر. طبعاً، إنه كان يشعر في بعض الأحيان بأن من واجبه قبلياً أن يذهب لتعزية العائلة السعودية بموت الملك خالد مثلاً. وتراه أيضاً يتصل بالسعودية وبالسفارة السعودية. يعني أنا شخصياً بالفعل أشعر بمضاضة أن أزور السفارة السعودية، لا أنا كسوري مثلاً بنسبة إلى سعودي. لكن الحكم السعودي الذي يمثل تقريباً أدنى درجات الحضارة في الوطن العربي، هذا الحكم المتأخر سياسياً واجتماعياً لا يؤهلني، ولا يدفعني إلى الاتصال ولو بسيط بالسفارة السعودية. قد اتصل وقد أكون صديقاً للسفير. ولكن على مستوى رسمي إلى حد كبير. وقد أدعوه، وقد أدعا عنده، ولكن لست صديقاً للمملكة السعودية ولا للعائلة المالكة ولا أشعر حتى، ولا مقتنع بها لكي يكون من واجبي مثلاً أن أبرق برقية بموت الملك خالد، هو جلال السيّد يرى نفسه بمستوى شيخ قبيلة. وبالتالي له قرابة مع السعوديين...

س: وهل له، انتماء قبلي عشائري ؟!... هل ينتمي إلى قبيلة أو عشيرة معينة ؟!...

ج: نعم، نعم ! ينتمي إلى قبيلة شخصياً، هو بصفة شخصية طبعاً له وحده، هو وقبيلته، أفراد قبيلته الذين تحضروا أو قسم من قبيلته وسكنوا المدينة. ولكنهم لا يزالون يشعرون بولائهم وبتعاطفهم القبلي العشائري. وأيضاً بما يفرضه هذا الولاء القبلي من ارتباطات مع قبائل أخرى. ولما كانت العائلة السعودية ذات أصل قبلي، ولما كان لجلال السيّد وشائج وعلاقات معينة عشائرية وعلاقاتٍ قبلية رحمية، يعني تجاوز منطقته أو ما يشبه ذلك، فإنه يشعر بهذه الواجبات، بكل راحة. فكونه بعثياً يلزمه بأن يكون أو يبقى بعيداً عن الحكم السعودي، لا شك، لكن كونه قبلياً، يلزمه بنفس القوة بأن يقوم بواجبات المجاملة والمشاركة العاطفية مع القبائل الأخرى...

س: هل انغمس في عمليات تآمرية وحدوية لصالح العراق ؟!...

ج: ... لقد ذكر ذلك، ولكن ذكر بأنه كان يقبض بعض الأموال من العراق الهاشمي أيام نوري السعيد. الآن، إلى أي درجة هذا الكلام صحيح ؟... طبعاً، في أيامنا، في الماضي، كنا دائماً نقول ونُنزِّهه عن هذا، ونقول: هذا الشخص نظيف، سواء أكان هو من الحزب أم من غير الحزب، هذا الشخص نظيف، جريء، شجاع، مفكر، مثقف كما ينبغي، على الرغم من أنه لم يحصل إلا على الشهادة الثانوية، وأظن أنه لم يحصل عليها.

س: قيل أنه مجاز في المحاماة !!...

ج: لا، أبداً !... هو لا يملك أي مهنة، ولا يملك أي شهادة جامعية. ولكنه شخص على مستوى عالٍ من الرقي الفكري، من الثقافة. وبصورة خاصة من التوازن العقلي. إذاً، ليس عبثاً أننا أحببناه، وليس عبثاً أننا ما زلنا نحبه، وأكثر البعثيين الباقين من الجيل الأول يبادلونه الزيارة الآن باستمرار، على الرغم من أنها زيارة مجاملة من جانب واحد.

س: هو لا يزور حتى الآن ؟...

ج: قلما يزور. طبعاً، عندما تكون ثمة مثلاً ما يشبه حلقات جزئية، تتداعى إليها مجموعة من الأشخاص، ويقال: الدعوة عندك الآن. يجيب رأساً: آسف !!... فيقول آخر: الدعوة عندي، يأتي لكن ضمن وقت محدَّد. أما الحضور (مع الأصدقاء)، مثلاً، فطبيعي عفوي. ولكن، إن فلاناً صديقه، إذاً ينبغي أن يزوره من حين إلى آخر، أن يَذْكره بالهاتف، هو لا يقوم بأي واجب من الواجبات. وهذا سرّ الكراهية الكبيرة والغضب الكبير الذي جعل جلال السيّد، والذي يعرف جلال السيّد، مكروهاً من قِبَل أعضاء الحزب في دير الزور، في حين أنه محبوب من فئة اجتماعية معينة... إنما داخل الحزب فهو مكروه، وحزبه هو وقوته الحزبية في دير الزور. ولكن في سورية عموماً محبوب من الناس، ويستحق الحب...

س: ... في تلك الفترة، عام 1955، في مرحلة حلف بغداد، هل وُجهت اتهامات مدعومة بوثائق بأنه كان على علاقة بشكل أو بآخر بهذه الأوساط...

ج: ... (مقاطعاً) قلت إنه قد اتهم بأنه كان يتقاضى أموالاً...

س: لا، عدا تقاضي الأموال، هل إنه كان محبذاً لحلف بغداد، لسياسة العراق الغربية، هل كان يدافع عنها، هل لمستم شيئاً من ذلك ؟!...

ج: أنا شخصياً لم ألمس شيئاً، لكن الآن وبعد فوات الآوان، وبعد أن تثقفت أنا أكثر، رأيت بالفعل أن من الظلم للعراق أن نطلب منه أن تكون له سياسة خارجية كسوريا. والسبب في ذلك أنه محاط بأكراد في الشمال وبأكراد آخرين بعدهم وبإيرانيين من الشرق. إذاً، ليس متيقناً من أي خطر إلاّ من جهة

الغرب فقط ... ولأن الغرب عربي ، ضمن هذا الجو ، ضمن هذه المخاطر التي يمكن أن يستثيرها الاستعمار بكل لحظة ، لم يكن في وسع العراق إلاّ أن يكون من أشياع " حلف بغداد ". ولو عادت الظروف الآن ، وكنت بمثل ثقافتي الآن ، لكان من رأيي أن يُترك العراق وينتسب إلى حلف بغداد . وأن يفعل ما تمليه مصلحته القطرية دون أن تُقطع الوسائل مع الأمة العربية ، بمعنى أن يلعب على الحبلَين ، إذا صح التعبير . أما خطأ عبد الناصر فهو شخصنة الواقع ، أي أن الحقّ هو الذي يستطيعه عبد الناصر ويراه عبد الناصر ، حتى إنه يرتفع إلى مستوى الحقّ المطلق ، وليس الحق النسبي . لكن ما يصح على مصر ، لا يصح على العراق ، لا يصح على الخليج العربي ، لا يصح على السعودية أيضاً . هذه بلاد ضعيفة يكفينا نحن أن نملك قلوبها من الداخل . لكن ليس علينا أن نحول بينها وبين أن تحيط نفسها بدروع واقية ضد الأخطار . كان " حلف بغداد " درعاً يصون العراق من هجوم تركي ، من ثورة كردية ، من اعتداء إيراني .

س : إذاً ، كيف كانت العلاقة بين عفلق والسيّد ، وهل كان هناك نوع من التفاهم بين جلال السيّد وبين ميشال عفلق ؟!...

ج : ... علاقة ودية دوماً ، لم تنقطع ودِّيتها قط والشخص الذي كان جلال السيّد يسمح لنفسه أن يزوره ، أي أنه كان يراه من مستواه هو ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار .

س : يزورون جلال السيّد ؟...

ج : أو العكس ، لكن ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، كانا يزوران أكثر البعثيين في بيوتهم ، بينما جلال السيّد ، قلّ ما زار بعثياً في بيته . فهو يرى الناس يأتون إليه ، ولكن لا يسعى ، هو ، إلى القيام بأي واجب تجاه البعثيين ، حتى ولا التهنئة بالعيد مثلاً .

س : إذاً ، لقد كان هناك تفاهم كلي ، كما قلنا ، بين الأستاذ عفلق وجلال السيّد ، فكرياً، قومياً ، سياسياً ... ألم يحصل نوع من الخلافات من هذا النوع في وجهات النظر بينهما ؟!...

ج : لم أسمع ولا لحظة من اللحظات أن ميشال عفلق يأخذ جلال السيّد على شيء ، بيد أنه كان يأخذه دوماً على التعالي الذي يثير عليه حفيظة الديريين من أفراد الشيوخ . كنا نقول له : كن لطيفاً ، جامل هؤلاء الحزبيين . ولكنه كان هو ينظر إلى نفسه كجبل شامخ ، عالٍ جداً . وهؤلاء كتراب ساكن في الأرض . وإذاً ، ما أبعد القمة عن السطح ، وبهذا المنطق ، كان يعاملهم . ولذلك كان يثير حفيظتهم. وأظن أن الحقّ معهم . لقد كان يمكن بسهولة أن يقيم معهم شيئاً من التوازن ...

س : لنتحدث الآن عن د. مدحت البيطار . قال لي د. فيصل الركبي : " مدحت البيطار ، كان يُعطي كل شيء دون مقابل . يضحي بكل شيء ولا يطلب شيئاً لنفسه ... وكان يقول : لقد هُضم حقي ".

ج : أول ما عرفت الدكتور مدحت البيطار ، عرفته عن طريق قيادته لفرقة كشفية ، كانت تنتقل في البلدان السورية ، مرة لها مخيم في حمص ، مرة في دير الزور، ومرة في الزبداني ، إلخ... لقد كان له نشاط اجتماعي سابق على تأسيس البعث . وكان أيضاً من أعضاء الكتلة الوطنية وبين المعدودين أو من المعدودين من ذوي الشأن ، لا الأول ولكن في الصف الثاني من رجال الكتلة الوطنية . يعني أنه لم يكن مرشحاً لأن يكون وزيراً . ولكن حتماً كان له تأثير في الشباب الدمشقي .

س : من مواليد أية سنة ؟...

ج : أظن ، أنه أكبر عمراً من ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، بسنتين أو ثلاث سنوات.

س : 1908 / 1907

ج : 1908 / 1907 ، لا أكثر . هذا رجل طيّب جداً . انتسب إلى البعث ، والبعث ليس فيه إلاّ العدد القليل جداً من المناصرين . لم يكن هذا الرجل يملك صفات فكرية أو ثقافة فكرية غنية . ولكن كان يملك سلامة الحَدْس ، طيب القلب ، حُسن النية ، التجرد في العمل العام . أي أنه ، حقيقة ، لم يكن يطلب لا جزاءً ولا شكوراً . وفي لحظة من اللحظات ، كان أبرز تقريباً ، أبرز بكثير من عضوي الحزب ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار . ذلك أنه كان وجهاً معروفاً في الشام ، أكثر من هؤلاء ، ولكن كان ذلك في الأيام الأولى للبعث . بيد أنه كلما تقدم البعث ، كان يحتفظ هو بمكانته القريبة جداً من ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار . لذلك فقد كانا يستشيرانه في كثير من الأمور ، ويعتمدان عليه . ولكن كان يأفل نجمه تدريجياً ، كلما ازداد الحزب أفراداً وشخصيات وانتشاراً ومستوى نشرات ، إلخ ... لكنه حتماً ضحى في سبيل الحزب بتضحيات كبيرة . وظل دائماً بلا شلّة . الكلام عن شلّةميشال عفلق ، يعني الكلام عن بعث دمشق ، عن بعث حمص ، عن بعث حلب ، عن بعث كل المدن ، ما عدا اللاذقية وجبل العلويين . أما مَن بقي من الآخرين ، فكانوا بعثيين (عفلقيين) في الدرجة الأولى . شلّة صلاح الدين البيطار ، كما كان يقال : فله بعض الأصدقاء من البعثيين، ممن ربما كانوا في الأعماق يؤثرونه أقل من ميشال عفلق ، ولكن ليس بشكل ظاهر ، بمعنى أنه استمرت "الطبقية ": (!!) (هنا بمعنى التمييز بينهما) غير واردة : هنالك ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار، وكان دائماً يُقرن اسما ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، في حين أن ميشال عفلق كان يتمتع بالنفوذ الأعظم ، أي أن هناك فارقاً نوعياً . ذلك أننا لو فرضنا أنه ذهب صلاح الدين البيطار من الحزب ، يبقى الحزب قائماً ، والعكس غير صحيح . لم يكن الأستاذ البيطار قادراً على التنسيب والجمع كميشال عفلق .

إلى جانب ذلك ، الأستاذ صلاح الدين البيطار كان يملك ، بالفعل ، فضائل من بعد النظر ، من الثقافة الجدية ، من الرصانة الفكرية ، من العمل المنهجي ، بشكل يشعر الإنسان معه برضى وبصورة عفوية جداً جداً أن هذا الشخص أقرب إليه من كل الناس ، من شدة طيبه ، من إخلاصه ، من عمله الدوؤب ، من عمله المنهجي ، من فكره الرياضي ، من حسن تبصره بالأمور . ومع ذلك ، كان ينقصه شيء أساسي ، لا أثناء الكتابة ، ولكن أثناء الخطابة ، كان يرتبك أثناء الخطابة ،

ويحتاج إلى أن يطيل في الجماهير مثلاً . لكن ، كلما أطال ، كانت لغته تسوب وفكره يضطرب ، بمعنى أنه كان منقسماً بين ضرورات العفوية وعدم قدرته عليها . لكن هذا وجه أمام الجماهير ، وإنني لم أكن أحب له أن يخطب بين الجماهير إلاّ كلمات قليلة ، ينبغي له أن يحضِّرها ، ولم يكن يفعل ذلك . لكن ، كان يطيل وكلما أطال ، كان يفقد وهجه .

أما ميشال عفلق فيستطيع أن يتحدث ساعة أو أكثر ، بكل بساطة وبدون أن يفقد الوهج أبداً . هذا هو الذي أعطى ميشال عفلق قيمته الأعلى . غير أن ميشال عفلق ، كان دائماً بحاجة تماماً ، تماماً ، إلى واحد مثل صلاح الدين البيطار لكي يتابعه ، لكي يُجبره على العمل وينظِّمه ، لكي يحثه ، لكي يكون حافزاً له، بكلام أوضح كان بحاجة إلى إخائه . لكن هذا الأمر ، مع الأسف ، قد استمر لمدة طويلة وعصفت به بعض الأزمات ، صغيرة نسبياً ، وصلت إلى بعض القطيعة ، لا إلى كل القطيعة . ولكن كان من جديد يلتقيان دوماً .

على كل حال ، إذا كان هناك شخصية بمستوى شخصية رجل دولة فعلاً ، فهي شخصية الأستاذ صلاح الدين البيطار . كان له عيب كبير ، هو بحثه في كل التفاصيل . يريد أن يعرف كل شيء ، وأن يدخل في كل التفاصيل حتى إنه يغرق في التفاصيل وهو بحاجة إلى وقته ليوصله إلى الكليات ، هذا باعترافنا جميعاً . فكان ، أنا شخصياً ، أعده أحد كبار رجالات الدولة في كل الوطن العربي . لا أدري إذا كنت قد اطلعت على جريدة " الاحياء العربي " التي كانت تصدر في باريس .

س : عندي إياها كلها ...

ج : عندك أعدادها كلها ؟... أنا كنت أكتب فيها أحياناً ، على قلة ، لأنه كان الوصول إلى الأستاذ البيطار برسالة صعباً .

س : ... هنا يُطرح سؤال : قيل لي إن ما ينقص الأستاذ البيطار العمق الفكري والفلسفة . في هذا النطاق ، لم يكن مثقفاً فلسفياً أو مفكراً ، في حين في الجانب السياسي والتنظيمي كان مبرِّزاً . فما هو رأيك ، مثلاً ، في جانب العمق الفكري ؟... هنا ، كان يفوق عليه الأستاذ عفلق ، كما قيل لي أيضاً ...

ج : في العمق الفكري المجرد ... الفلسفي ... النظري... إنما العمق العملي الفعلي والتفكير في الأمور الجاهزة والآنية ، وتحليل الأوضاع السياسية ، كان صلاح الدين البيطار يأتي في الدرجة الأولى ولم يكن هذا التفوق لميشال عفلق. بمعنى أن ميشال عفلق منظِّر بالدرجة الأولى . صلاح الدين البيطار منهجي بالدرجة الأولى ، أي أنه يفكر في الوسائل لتحقيق الأهداف . ذاك يفكر في الأهداف نفسها ويعمق البحث فيها ، طبعاً بقدار ما أتيح له ، ولا أظن أنه فعل الشيء الكثير على كل حال . والبعث لم يأت بأشياء عظيمة جداً جداً . أسلوب الأستاذ ميشال عفلق ، سلامة فكره ، لمعاته ، لمحاته ـ طبعاً ، كانت تلمع ، وذلك بعمق ما فيه أيضاً من شباب ـ ولكنها غير كافية تلك الثقافة . أما الآن ، لا أظن أنني مستعد إلى أن ، ماذا أقول ، أتوهج شوقاً إلى قراءته في مقال يكتبه الأستاذ ميشال عفلق من جديد .

س : ... (مقاطعاً) أو كتاباته القديمة !!...

ج : كتاباته القديمة ، ظلت تحفظ معها ، كجزء منها ، تلك العاطفة التي حظيت بها . عندما أعود إليها وأقرأها ، أشعر بأنني أتأثر بها ، كما كنت أتأثر بها في زماني ، عندما كنت أقرأ مجلة "الرسالة " لأحمد حسن الزيات وأرى فيها كتَّاباً مصريين في الطليعة ، بما كانوا يغذون الفكر في هذا الأسلوب الجديد ، بهذا الفكر الحلو . أما الآن ، فأستغرب بالفعل أن هذه الأمور (في " مجلة الرسالة ") أعجبتني يوماً ما ...

س : وهذا هو الحال كذلك مع فكر البعث أو كتابات عفلق ؟!...

ج : كتابات عفلق لأنها تتكلم عن مبادئ قومية ، عن عقائد قومية ، عن حاجات قومية ، أي أنها تتكلم عن شيء نحن بحاجة إليه ، لأنها تعبِّر عنا ، ذلك أن القسم الأثمن مما أسميه : مبادئي ، عقيدتي ، أفكاري ، وجودي ، وجودي المعنوي ، هو هذا الذي وضع إطاره ميشال عفلق . ميشال عفلق يمثل أثمن ما فينا . إنه لم يخترعه لنا ، ولكن نظرَّه لنا ، لكن جعله لنا أن نسترجعه ونعيده بشكل أوضح . إذاً ، في أي وقت تقرأه ، تشعر بأنك تعود إلى نفسك ، إلى ذانك التي أيقظها هو ، لم يخلقها ، ولكن أيقظها ، أزدادها وعياً .

س : هل هناك مقالة للأستاذ عفلق أعجبتك أكثر من غيرها وتركت في نفسك أثراً لا يمحى ؟...

ج : المقال الأول في جريدة " البعث " . والمحاضرة الأولى في مدرج الجامعة السورية .

س : ما هو المقال الأول في جريدة " البعث "، ما هو عنوانه ؟...

ج : لم أعد أذكر إطلاقاً ، لكنه من الكلام الجميل ، الجميل ، الذي يستطيع أن يكون تراثاً إنسانياً وليس تراثاً بعثياً عربياً فقط . وكذلك وبعده مباشرة ، مباشرة، وبنفس الأسلوب الجميل أيضاً والرائع مقالة صلاح الدين البيطار . وكأنما كان ينظر صلاح الدين البيطار إلى مستوى ميشال عفلق ويجهد من أجل بلوغه ما يمثله . لكن الذي يصل إليه صلاح الدين البيطار بالجهد . كان ميشال عفلق يبلغه بدون جهد.

س : سؤال : د. مدحت البيطار . لماذا ترك الحزب ؟...

ج : لم يتركه إطلاقاً ، استمر فيه حتى جاءت ثورة 8 آذار عام 1963، وكان يُعتبر بعثياً...

س : هل أبعد عن القيادة أو تنحى عن القيادة ؟!...

ج : تنحى عن القيادة لمدة طويلة ...

س : ... منذ الاندماج ، اندماج البعث والحزب العربي الاشتراكي ، بعد الاندماج غاب اسمه عن القيادة .

ج : هو اضطر إلى قبول وظيفة خارج سوريا . ذهب إلى الكويت وأمضى مدة من الزمن لا بأس بها في الكويت . ثم لما جاء الحزب إلى الحكم ، عين سفيراً في السعودية وانصرف أيضاً لمدة طويلة . لكنه منذ ترك ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار الحكم ، لم يعد له أدنى صلة بالحاكمين ...

س : ... الآن نبحث شخصية أكرم الحوراني ، وهو الأخير من بين الشخصيات القيادية في حزب البعث العربي الاشتراكي ... هنا ، شخصية أكرم الحوراني ، شخصية تثير كثيراً من الجدل والسجال بين مؤيد ومعارض والمؤيد هو مندفع بحماس والمعارض هو أيضاً بعنف . فأنتم ما هي تجربتكم مع هذه الشخصية القيادية . وكيف يمكن أن تقدموا لنا صورة حقيقية عن شخصية أكرم الحوراني ؟!...

ج : أكرم الحوراني ، أولاً شخصية شعبية بمعنى أنه قادر على الاختلاط مع كل الناس ، وبالسهولة ذاتها مع أكبر الكبار وأصغر الصغار ، مع العسكريين ومع المدنيين . هذا الرجل قادر على أن يكون له أصدقاء بين كل الناس، لأنه شخصية شعبية جداً جداً. لم يكن كذلك لا صلاح الدين البيطار ولا ميشال عفلق ، وطبعاً ، لا جلال السيد . لكن جلال السيّد تقصَّد أن لا يكون شعبياً ، هذان (البيطار وعفلق) يريدان أن يكونا شعبيين بدون أن يملكا المواهب الضرورية لذلك. أما أكرم الحوراني فهو شعبي بالفطرة، خُلقة ، تلقائياً ، عفوياً. إن أسلوب ميشال عفلق نخبوي طبيعي، وسلوك أكرم الحوراني شعبي. ثانياً، الدينامية ، يعني الحركة الدائمة ، أي أن ذهن أكرم الحوراني يعمل دائماً في تحريك الناس ، لخدمة الأهداف التي هي في الواقع أهداف بعثية ، ولو كان هو في الأصل غير بعثي ، لكن الأهداف تلتقي تماماً مع البعث ، ولذلك انضم حزبه للبعث . الصفة الثالثة لأكرم الحوراني هي أن له تأثيراً كبيراً على أتباعه. قد كان من الممكن دائماً أن يوجد بين البعثيين من يهاجم صلاح الدين البيطار أو يهاجم ميشال عفلق ، أو يهاجم البعث بصورة عامة . لكن أكرم الحوراني كان يملك السيطرة الكاملة على أعضاء حزبه بشكل رهيب ، يعني حتى العسكريين، كانوا يرونه على أنه " الشيخ "، جاء الشيخ ، وذهب الشيخ ، وهكذا يريد الشيخ ، وينقادون له طواعية .

س : وينادونه فعلاً بالشيخ ؟!...

ج : أي ، نعم ، نعم ، هو ليس شيخاً ...

س : فهمت ، لكن هل كانوا يقولون ذلك وينادونه كذلك ؟!... هذه أول مرة أسمع بها ...

ج : ... لإجلاله ، إجلالاً له . أكرم الحوراني كان سياسياً منذ زمن الكتلة الوطنية ، أي أنه من أول الناس الذين كانوا يمثلون الوجه الشعبي لحماه . هو وشخص آخر نسيت اسمه الآن . لكن من بداية الأمر ، من بداية التمثيل النيابي ، كان أكرم الحوراني حاضراً في الانتخابات النيابية وناجحاً بتمثيل أعضاء حزبه الذين هم أعضاء حزب الشباب .

إذاً، لنتابع تعداد صفاته الشخصية : عدا النفوذ الشخصي على الآخرين ، لم يكن يعبأ كثيراً بالمراسم التنظيمية الحزبية . هذا يعني أن الحزب له مكلَّف بعقد مؤتمر في وقت مناسب ، لا ! هذه تحلُّ بينه وبين رجال الحزبيين السياسيين القريبين منه ، بمعنى وكأن الحزب عائلة كبيرة وهو شيخها. وبالتالي يتصرف هو " ورؤساء القبيلة والمشايخ الآخرون " لفترة ما ، وهو أكبرهم بالطبع ، جلالة وقدراً. ويتصرف بدون إذن، بدون منهجية . وهذا النوع من الغوغائية بلغة البعثيين الأوائل أي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق، هذا النوع من الفوضوية ومن عدم الانقياد والانضباط لمراسم حزبية ولعمل منظَّم ومنهج ، هذا كان يعاب جداً على أكرم الحوراني، أو على الأقل كان صلاح الدين البيطار وميشال عفلق هما اللذان يعيبان على أكرم الحوراني هذا النوع من الفوض أو ، ماذا أقول ، هذا النوع من الفلتان .

إنما استطاع أكرم الحوراني أن يعبئ فلاحي سوريا كلها من أجل أهدافه وبصورة خاصة للتخلص من الإقطاع. واستطاع في يوم ما أن يفعل وأن يقوم بما يسمى مؤتمراً للفلاحين في حلب ، كان له دوي حتى إنني أنا بالفعل تعجَّبت ، لماذا لا يستلم الحكم يومئذ ؟!... غير أن الدويّ الشعبي شيء والمراسم السياسية شيء آخر. يعني ، هذا الدويّ الشعبي لا يعبِّر عن نفسه بانتخابات نيابية بعدد أكبر أو بعدد موازٍ من الأفراد ... لو أنه أمكن أن يعبِّر شعبياً عن نفسه ، لوجب أن يكون هو رئيس الدولة . رابعاً ، هنا ، كان الأستاذ أكرم الحوراني ، بالفعل ، لا يخضع لأي مراسيم حزبية ، يتصرف فردياً . مثلاً ، إنحاز لحسني الزعيم ، وهذا قبل الانضمام إلى حزب البعث ، إنحاز لحسني الزعيم ، في حين أنه يستحيل على واحد كصلاح الدين البيطار وميشال عفلق أن ينحازا لحسني الزعيم . إنحاز أيضاً أو شارك تقريباً في كل الانقلابات العسكرية بصورة ضمنية ، أي أنه كان دائماً عضواً بارزاً . وكان دائماً يلقى الهزيمة على يد الانقلابيين العسكريين طبعاً . فمن هذه الناحية ، كان دائماً موضع نقد. فالرجل لا ينضوي في إطار النظام الحزبي ، لا يقبل العمل المنهجي، لا يقبل العمل الصريح ، لا يقبل العمل الجماعي أو يتأبّى عليها جميعاً ، ثم يقابل مَن يشاء ، سواءً أكان الحزب يرضى ذلك أم لا يرضاه . لكن عندئذ الحزب ، يعني القسم البعثي من الحزب ، أما جماعته ، فيظلون يقبلون ما يفعل بدون مناقشة ...

س : ما مدى شعبيته داخل الحزب : شعبياً ، أكرم الحوراني داخل الحزب كحزب بعث في سورية ؟!...

ج : كان له شعبية طبعاً داخل الحزب في الواقع ، ولكنه كان يمثل " كباش "، يعني نوع من الاصطفاف ، هذا بعثي ، بعثي سابقاً ، وهذا أكرمي أو حوراني أي من الحزب العربي الاشتراكي ...

س : استمر ذلك ؟...

ج : استمر ، لكن طبعاً مع شيء من التحوّل : بعض البعثيين صاروا أقرب إلى أكرم الحوراني وبعض الأكرميين صاروا أقرب إلى ميشال عفلق . هذا صحيح : فخطأه ، خطأ أكرم الحوراني ، القاتل دون شك ، هو أنه وقف من عبد الناصر موقفاً سلبياً علناً . وكان من حقّه أن يترفع عن هذا ، لكي يحتفظ بخط الرجعة . هنا ،

نستطيع أن نقول أكرم حوراني ، ولو أنه أخطأ هذا الخطأ السياسي ، لكن خطأه مسؤول عنه عبد الناصر . يعني ذلك وكأن عبد الناصر جعل همه الأول والأخير " قتل " البعثيين (سياسياً)، إذاً ، بعد أن جلاهم عن الحكم واحداً بعد الآخر .

س : سؤالي الآن يُطرح من ناحية الذكاء الفكري والنظري لدى أكرم الحوراني . هذا أول جانب من السؤال ...

ج : نعم ، كان يُصدر أكرم الحوراني جريدة اسمها " الطليعة ". وكان يكتب في الغالب افتتاحيتها . وعندما يكتب ، كنت أجد دائماً كتابته معقولة وسهلة . ميشال عفلق أكثر أناقة ، أرقى تعبيراً ، أجمل أسلوباً. ولكن أكرم الحوراني يكتب بطلاقة، بسهولة، بكلام يفهمه الجميع، وبما ينبغي من العنف المناسب .

س : ... إنما المضمون مختلف بين كتابات عفلق وكتابات أكرم الحوراني ...

ج : من حيث مستوى العمق ، من حيث مستوى الأناقة ، من حيث حسن التعبير !!... أكرم الحوراني ، على سبيل المثال ، ليس له لمعات ، ليس له لمحات ، لكن كلامه معقول ، وبالتالي ، كان بالفعل جديراً بأن يكون زعيم حزب ، ولو نقصته بعض الأناقات التعبيرية الأخرى أو بعض العمق . لكن كان جديراً بالصفات التي ذكرتها وهي الشعبية الكبيرة، الجماهيرية ، إذا صح التعبير ، الحركة الدائمة ، النشاط الدائم، الهيمنة ... وإنه ذكي ، بلا أدنى شك . وأظن أنه بأعجوبة ما فَقَد جزءاً من هذا الذكاء، عندما وقف عنيفاً ضد عبد الناصر علناً وكان ينبغي أن يكون أحدق ، ولا سيما أنه من عمر ناضج إجمالاً ، ثم هو نائب رئيس جمهورية ، وهذا يعني عادة أن يكون الإنسان أكثر رصانة في هذه المواقف الحادة والتاريخية الكبيرة ...

س : هل هو قارئ، كان يقرأ كثيراً وماذا ؟!...

ج : عندما نزوره في بيت ، كان هناك غرفة ، ولا نتجاوزها إلى غيرها. أنا زرته مثلاً حتى في العراق ، وأيضاً زرته في الصالة التي يدخن فيها أو يسكن فيها هو وعائلته ، إلخ ... لم أكن أرى شيئاً جديداً عنده. لكن بالتأكيد ، كان يقرأ ، بالتأكيد كان على اطلاع كثير على الحياة السياسية. الأستاذ ميشال عفلق كان لا يقرأ . ولكن الذي كان يقرأ أكثر منهما جميعاً هو الأستاذ صلاح الدين البيطار .

س : نوع القراءة ، التي يقرأها .

ج : الأستاذ صلاح الدين البيطار ، كان يقرأ تاريخ الفلسفة ، والفلسفة ، والفلاسفة وخاصة القوميين منهم ، فيطلع منهم ، فيطلع على التيارات الفكرية ... وهذا الشيء قديم عنده ، كان قديماً عنده منذ باريس . لأن ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، كانا زميلي دراسة في باريس ، وكان دائماً الأستاذ ميشال عفلق يتطلع تطلعات قومية وفكرية وثقافية . وكان يجاريه فيها صلاح الدين البيطار ، على الرغم من أن الاختصاص ليس هو هو ، هذا رجل في الإنسانيات والآخر في العلوم الدقيقة . مع ذلك ، كان لا يُغفل إطلاقاً تاريخ الفلسفة ، وكان عنده كتبها .

س : لديَّ أيضاً سؤالان أخيران : السؤال الأول حول مصدر الخلافات التي كانت تقع ، بين الحين والآخر ، بين الأستاذ ميشال عفلق والأستاذ صلاح الدين البيطار ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كيف تفسرون الخلافات بين القادة الثلاثة : عفلق والبيطار وأكرم الحوراني ، لأن البعض ، وهم كُثُر ، كما قيل لي الآن ، يعزو إلى ذلك فشل الحزب . فما هو تقييمكم أنتم ؟...

ج : لا ! أثناء تقدم الحزب حتى عام 1958، أثناء وجود الشيشكلي ولعام 1958، كان حزب يتقدم ، والذي أنجح صلاح الدين البيطار في دمشق هم الحزبيون ، حزبيو أكرم الحوراني وليس بعثيو صلاح الدين البيطار وليس بعث دمشق . ولو وقف البعث مع صلاح الدين البيطار ، وقد وقف فعلاً واكتفى بهذا الدعم ، ما نجح في حياته ولا مرَّة . والآن أكرم الحوراني هو الذي دعم .

س : ... ممكن أن يكون موقفاً سياسياً . لقد استفاد كذلك سياسياً أكرم الحوراني ، ولكن يبدو أن الخلافات فيما بين القادة الثلاثة كانت مستحكمة وبقيت مستمرة ...

ج : نعم ، عاصرناها ، وحاولنا ترميمها بقدر ما نستطيع ، وتأبَّت على كل إصلاح . في الواقع، أقول، أنا شخصياً، تحليلي الشخصي، مَن هو الأول ؟!... ميشال عفلق يريد أن يكون في المقام الأول ، أن يكون الأول؟... وأكرم الحوراني يريد أن يكون هو الأول ؟... هذا أمر لا أشك فيه أبداً . إذاً ، الخلاف على المقام الأول في الحزب . يعني لا بأس إطلاقاً أن يرقى ميشال عفلق بالمقام الثاني في الحزب ويكون سعيداً بذلك أكرم الحوراني . لكن ميشال عفلق لا يقبل أن يكون الرجل الثاني وذاك لا يقبل أن يكون الرجل الثاني أيضاً. لكن شعبية أكرم الحوراني أكبر بما لا يقاس من شعبية صلاح الدين البيطار أو ميشال عفلق أو كليهما . لقد كان يستطيع أن يُنجح قائمة كاملة في كل لحظة . بينما لا ميشال عفلق استطاع أن ينجح في الانتخابات ، ولا كان بإمكان البعث أن يرشح شخصاً لينجحه في انتخابات فرعية ، أو حتى في أعزّ قوة الحزب ، لم يكن يستطيع الحزب أن يفرض أي مرشح ، لا في حمص ، ولا في حلب ، ولا في أي منطقة . هذا يعني وبكلام أوضح ، أن الذين نجحوا في النيابة عن حزب البعث ، مثل جلال السيّد ، كان ذلك عائداً إلى قبليته ، إلى دَيْريَّته ، ولربما أيضاً إلى معونات عراقية أو من القبائل الأخرى . والذين نجحوا ، مثلاً في اللاذقية ، وهيب الغانم ، بالاستناد إلى طائفيته ، ليس أكثر. إذن ، مَن هو الذي يكون في المقام الأول، هذا خلاف ضمني، دائماً موجود ؟!...

س : ... صراع على السلطة !!...

ج : يعني ، صراع على السلطة في الحزب ... ثانياً ، لم يكن أكرم الحوراني يخضع لمنهجة الأستاذ ميشال عفلق ، مع أن منهجية الأستاذ ميشال عفلق موضع بحث دائماً . إلاّ أن الأستاذ ميشال عفلق يريد ، داخلياً، دائماً أن يتقيد بقواعد الحزب، وأن يدعو إلى مؤتمرات الحزب في الوقت المناسب والمعين . وكان لا

يقضي بأمر إلاّ ويناقش فيه الجميع . فقد كان أي إنسان يستطيع أن يدخل إليه في أي لحظة ويناقش معه ساعات طوال مشاكل الحزب . الأستاذ أكرم الحوراني ، ليس من هذا النوع . فهناك ، الصفوة من رجاله هم الذين يبتّون بالنيابة عن الآخرين . والثقة هي التي تظل العامل الأكيد دائماً . شيء ثالث ، ربما ، هو أن ميشال عفلق يعيب على صلاح الدين البيطار بعيب آخر هو "اللا ـ اتجاهية "، بمعنى اتجاهه ليس اتجاهاً معيناً ، ذلك أننا لا يمكن أن نقول إنه يريد هذا باستمرار، أو ذاك باستمرار. لقد كان في كل لحظة يفاجئ باتجاه لا اتجاه ...

س : ... مخالف للاتجاه السابق ؟!...

ج : ... لا ، اتجاه ، لا اتجاه : بمعنى آخر : اتجاهه الشعبي دوماً ، طبعاً ، التقدمي طبعاً ، الاشتراكي طبعاً ، لكن هذا لم يكن يجبره دوماً على التقيّد بنصوص معيَّنة تحول دون تحالفات جانبية غير خاضعة لمقاييس الحزب ... هذا كان عيباً كبيراً له . أما الشيء الأساسي في رأيي ، فهو حتماً التنازع على المركز الأول في الحزب . فلم يكن أكرم الحوراني يرى أن ميشال عفلق جدير بأن يكون الأول في حزب سياسي ، ولم يكن العكس ، ميشال عفلق يقبل بأن يكون أكرم الحوراني هو صاحب المقام الأول في حزب البعث (حزبه). إنه نزاع طبعاً أساسي .

أثناء الموقف من عبد الناصر ، كان ميشال عفلق هو الأحكم . لكن حكمته مع ذلك قد صانته عن دوس الهدف المقدس . والهدف المقدس : يعني الوحدة ، شعبية أكرم الحوراني جعلته يظن أن بإمكانه الاعتماد عليها لمواجهة صريحة مع عبد الناصر . لكن هذا وذاك ، لقي المصير ذاته خلال سنتين . لقد قُتل (سياسياً) كل ما يسمى " الطبقة السياسية " في سورية منذ مجيئ عبد الناصر . فقد أُعدمت أعداماً مبرماً ، ولم يعد هناك طبقة سياسية في سوريا منذ جاء عبد الناصر ، قتلت ، قتلت دفعة واحدة مع وقوع الانفصال .

س : الخلافات بين ميشال عفلق وصلاح البيطار ...

ج : قليلة جداً .

س : طيِّب ، أستاذ حافظ (الجمالي)، شكراً لك على هذا الإيضاح . والآن سنتابع تصميمنا للمقابلة ، إذا سمحت ، لمحة عن ما يمكن أن نسميه بالقيادات الصف الثاني لحركة البعث العربي ، يعني تلك التي كانت في مرحلة الأربعينات وكانت لا تزل أما على طاولة الدراسة أم في الجامعة أم غير ذلك . هذه القيادات التي ستصبح فيما بعد فعلاً من القيادات البارزة في حزب البعث ، على اعتبار أن كثيراً منهم أصبح وزراء أو سفراء ، كيف يمكن أن ترسم لي صورة عنهم ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، دورهم في إغناء فكر الحزب ؟!...

ج : الجيل الثاني من الحزبيين البعثيين هو جيل طلاب الأستاذ ميشال عفلق ، في تجهيز دمشق . ومَن كان يؤم تجهيز دمشق من الأقاليم والمناطق . مثلاً ، تلميذ الأستاذ ميشال عفلق : سامي الدروبي ، جمال الأتاسي ، أيضاً بديع الكسم ، شامي . ولكن ، تلميذ له ايضاً ، عبد الله عبد الدايم ، نزيه الحكيم . ومن السبّاقين بدون شك ، ربما كنت أنا أقدمهم . أصلاً أنا لا أعرف أنه يوجد مَن هو أقدم مني من هذا الصف الذي يُسمى الصف الثاني . ومن حيث الدخول في الحزب والمشاركة فيه ، كان ينبغي ، طبعاً ، أن أكون في الصف الأول . لكن وضعي كموظف لم يكن يسمح لي بأن أتظاهر في ما يسمى بالعقيدة الحزبية . ولذلك أنا لم أحضر ، في الواقع ، المؤتمر التأسيسي الأول لتأسيس الحزب . وأكثر الموظفين لم يحضروا ، وأنا لا أظن إطلاقاً بأن سامي الدروبي ، مثلاً ، أو عبد الله عبد الدايم ، أو شاكر الفحّام ، مثلاً ، قد حضروا المؤتمر التأسيسي الأول .

س : شاكر فحّام حضر ...

ج : قد يكون حضره ، ولكن ، على كل حال ، طبعاً ، هناك أسباب ، عندما يكون الأستاذ شاكر الفحّام قد حضره ، هناك أسباب ، لكن ، كثيرون هم الذين تغيبوا عن حضور المؤتمر الأول ، لا مخالفة للحزب أبداً ، ولكن حرصاً عليهم من أذى الدولة ، لأننا كنا دائماً مضطهدين بصورة ما ، في أثناء عهد شكري القوتلي مثلاً . فخلال هذه المدة ، لا بدّ أن الذين كانوا يبرزون بنشاط حزبي هم الذين كانوا يُعتبرون في القيادة الأولى أو الجيل الأول . إلاّ أن الجيل الأول انحصر فعلياً في ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار (ومدحت البيطار) وجلال السيّد وأخيراً وهيب الغانم ، على الرغم من أن وهيب الغانم كان تلميذاً في كلية الطب ، أي أن شأنه شأن جمال الأتاسي . جمال الأتاسي كان يوقِّع بعض البيانات مع الأستاذ ميشال عفلق ومع الأستاذ صلاح الدين البيطار ... والسبب في أنه كان طالباً وغير خائف ، ثم ولا شك طبعاً في أنه يعتمد على " عصبية عائلية " مهمة جداً موجودة في حمص طبعاً . هذا يدخل في الجاه ويعتمد على ثروة شخصية يسَّر له الحياة دون مشاكل مالية . هذا كله يجب أن يدخل في الحساب ، مهما كان هذا غير واضح في ذهن البعث .

إذاً ، أُعتبر الجيل الثاني هو كل من كان تلميذاً لهؤلاء الأساتذة ، يعني لميشال عفلق وصلاح الدين البيطار في الدرجة الأولى . هذا الصف الثاني أكثره لم يدخل الحكم . يعني كان ثانوياً جداً . مثلاً ، في الوزارة الأولى ، الوزارة التي شكلها الأستاذ صلاح الدين البيطار بعد الانقلاب (8 آذار 1963)، دخل سامي الدروبي ، دخل جمال الأتاسي ، كوزيرين ، لم يلبثا بعد شهرين أن استقالا . ثم سامي الدروبي عُرض عليه تشكيل وزارة . في الواقع ، مجرد عرض ، ولم يكن أحد جاداً في أن يُكلَّف ويشكل هو الوزارة ، ولذلك سرعان ما ترك أو حُمل على ترك هذه المَهمة . ولو أنه هو بالذات يؤولها بشكل آخر . فإذاً ، الجيل الثاني مبدئياً ، الجيل الثاني لم يدخل في الحكم . ويمكن التعميم والقول إن دخول الجيل الأول في الحكم ، هو دخول رمزي وبمعنى آخر أن ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار لم يدخلا في الحكم إلاّ بصورة رمزية ، شكلية ، وإنما كان الحكم في الدرجة الأولى للفئة العسكرية وبصورة خاصة للّجنة الخماسية التي تقوم على عدد من أفراد من الضباط البعثيين ، ولكن من

الضباط الواثقين بأنفسهم إلى الدرجة التي يخيَّل إليهم أن وجود ميشال عفلق أو عدم وجوده ، وجود الأستاذ صلاح الدين البيطار أو عدم وجوده ، سيّان . يعني ، هم قادرون أن يحكموا ... إذاً ، الجيل الذي حكم هو الجيل الثالث وليس الجيل الثاني . مثلاً ، نور الدين الأتاسي ، كان رئيس دولة ورئيس الوزارة في العهد بين أول عام 1966 وأواخر عام 1970 . نور الدين الأتاسي هذا من تلاميذه ، هو ويوسف الزعين وإبراهيم ماخوس ، إلخ ... هؤلاء أكثرهم ، كانوا تلاميذنا . لذا ، فإن الذين قفزوا إلى الحكم ، بعد مَظْهر المشاركة والدخول في الحكم من قِبل الجيل الأول ، لم يعقبه إلا الجيل الثالث ...

س : ... لكنني أنا ما قصدته بسؤالي ، إنما هو دور الجيل الثاني من حيث دفع مسيرة الحزب الثقافية ، في بلورة فكر الحزب ، في بلورة سياسة الحزب الأيديولوجية وليس السلطة هي كل شيء ...

ج : ... هذا صحيح ... الجيل الثاني كان له فضل كبير ...

س : في أي جانب مثلاً ...

ج : لأنه كان من الأساتذة . والأساتذة يبلِّغون رسالتهم لطلابهم . ويؤثِّرون في طلابهم من هذه الدرب ، أي كونهم اساتذة ، وكون الطلاب ، طلابهم وليسوا طلابَ آخرين . ثانياً ، لأنهم أيضاً على مستوى سليم جداً من النزاهة والكفاءة ، فقد كان يُعتزُّ بأسمائهم ، وبالتالي موضع ثقة . فأثروا من هذه الناحية . ثم ، من الأصل ، كانت لهم سمعة أخرى غير سمعة الحزب ، يعني أنا لم أكن مثلاً أنتظر حزب البعث لأكون معروفاً . كنت معروفاً بالحزب ودون الحزب ، وذلك عن طريق النشاط الفكري، عن طريق ، مثلاً، النجاح في التدريس أو عن طريق النجاح في الكتابة وتأليف الكتب، إلخ... لقد كان هذا النشاط الفكري في تلك الأيام نادراً نوعاً ما . وبالتالي كان بالفعل يُعبِّر عن ظهور الكتّاب والمثقفين ، بغض النظر عن الحزب ، ذلك أننا نحن قد أغنينا الحزب فكرياً ولم يغنينا هو . كان يمكن أن نصل إلى مراكز عليا من زمن طويل ومن بدايات عملنا ، لو أننا انحزنا إلى الجانب الآخر الذي كنا نحاربه إبان حكم شكري القوتلي أو غيره ...

س : طيِّب ، أنا أريد أن آخذ هؤلاء المثقفين ، مثلاً ، فرداً ، فرداً ، حتى نستطيع أن نبلور فكرة عامة عن المستوى الثقافي لحركة البعث . لنبدأ ببديع الكسم ، في رأيكم : عطاءاته الفكرية أو الشيء الثقافي أو الفلسفي الذي قدمه ، ثم ننتقل إلى الآخرين ...

ج : بديع الكسم ، كان من البداية ، من الطلاب النابهين جداً . وكان الأستاذ ميشال عفلق يُلقي إليه بآرائه ، بأحاديث شخصية . وكان بديع الكسم يترجم هذه الأفكار كتابياً ، لأن الكتابة صعبة على الأستاذ ميشال عفلق ولكنها سهلة جداً على بديع الكسم . وكان يحسن أداء التكرار ويُغنيها بمفهوم شخصي . وكانت تعجب الأستاذ ميشال عفلق باستمرار . إذاً ، هذا أمر هام جداً . لم يكن الطالب بديع أستاذاً مثلنا (بمعنى موظفاً). ولكن كان له رأي شخصي للقرب من الأستاذ ميشال عفلق والتعبير عن أفكاره وبخاصة في جريدة الحزب : البعث ". فقد كان أكثر منا جرأة في التعبير عن أفكار الحزب (وعن أفكار الأستاذ عفلق)، لأننا نحن موظفون . هو لم يكن موظفاً . ثانياً ، بالفعل ، لأنه يتقن هذه المَهمة : التعبير عن الأفكار ، عن أفكار ميشال عفلق ، وإننا لم نكن نشكو إطلاقاً أو نشك في أنه هو الترجمان ، لأنه كان يحسن الترجمة كما ينبغي .

سامي الدروبي ، مثلاً ، وهو أكبر من الدكتور بديع الكسم بسنتين أو بثلاث سنوات على الأقل ، هذا الرجل منذ السنة الثانية لوجوده في القاهرة ، نشر كتابه مترجماً في دلئرة المعارف .

س : من مواليد ، أي سنة ؟!...

ج : هو من مواليد سنة 1921 تقريباً .

س : بديع الكسم ؟!...

ج : يمكن أن أقول من مواليد عام 1922 أو 1923 . الأستاذ سامي الدروبي يمضي إلى القاهرة ليحصل على الليسانس في الفلسفة . وكان يترجم كتباً منذ سنته الأولى، وأكبر دور النشر كانت تتلقفه . إذاً ، هذه مسألة واضحة جداً . مثلاً ، عبد الله عبد الدايم ، أيضاً كان له مثل هذه الميول منذ كونه طالباً في الجامعة في القاهرة .

س : من مواليد أي سنة ، إذا كنت تذكر ...

ج : في عمر بديع الكسم أي 1922 ـ 1923 . أما جمال الأتاسي ، فقد كان رفيقاً لسامي الدروبي ، وكان معروفاً أيضاً بتفوقه في الصف وكطالب ناجح . ثم كان معروفاً باهتمامه القومي وبعمله السياسي وإصغائه للأرسوزي مثلاً ، ولتطوعه في خدمته ، وفي بيعه لكتابه الذي هو " عبقرية الأمة العربية في لغتها "، أي أنه كان معروفاً جداً ، جمال الأتاسي وهو طالب ثانوي وطالب جامعي . في ذلك الحين ، كنا تقريباً من الأوائل الذين حصلوا على البكالوريا . وبالتالي ، كان الذي يحصل على البكالوريا ، كان ولأنه نجح في البكالوريا ، كان يصبح مشهوراً . فكيف إذا كانت له أسباب أخرى للتفوق . هذا كله صحيح ، أي أننا أغنيناه نشراً ، أغنينا حركة البعث نشراً بين الناس ، بين الطلاب ، بين الجماهير ، بقدر ما استطعنا . لكن هل أغنيناه عقائدياً ؟... وأنا أقول : لا !!... بمعنى أوضح ، فإن العقيدة كانت دائماً متروكة لصانعيها ، أي للأستاذ ميشال عفلق وللأستاذ صلاح الدين البيطار ونحن كان يمكن أن نفكر في أي شيء ونعتبره بعثياً . ولأننا لم نكن المؤسسين ، لم نكن نعرف ما إذا كان تفكيرنا هذا هو التفكير الذي يوافق عليه الأستاذ ميشال عفلق أو الأستاذ صلاح الدين البيطار أو لا يوافقان . إذاً ، نحن بحاجة إلى موافقة ، بينما هما ليسا بحاجة إلى أي موافقة .

س : هما صانعان لفكر البعث القومي وأيديولوجيته ...

ج : ثالثاً ، سبب آخر ، لم تُتح الفرصة كذلك (لإغناء فكر البعث وأيديولوجيته)، لأن المدة الفاصلة بين نشوء الحزب وبين " موت الحزب " مع قيام الوحدة مع مصر ، مدة صغيرة : ثلاثة عشر عاماً ... وأكثرها كانت سنوات اضطهاد ، مثلاً ، أربع سنوات حكم الشيشكلي العسكري ، نصف سنة على الأقل مع حكم حسني الزعيم ، هذه أربع سنوات ونصف السنة مثلاً انقضت مع الانقلابات العسكرية .

س : بمعنى لقد كانت الفترة الديمقراطية قليلة جداً .

ج : نعم ، بالفعل ، لم يعش الحزب حياة منظَّمة ،ديمقراطية حقيقية، كان مضطهداً باستمرار. مثلاً ـ نكبة فلسطين 1947 ـ 1948 !!... غيِّبت القيادة عن الحزب ، لأنها ذهبت إلى فلسطين وأُقيم عنها هنا قيادة موقتة لتسيير الأعمال فقط . قيادة الحزب ذهبت إلى فلسطين في الحرب الأولى وأمضت السنة 1948 تقريباً كلها في عذابات ونضالات شبه عسكرية . وبكلام آخر ، لم يُتح لنا فرصة الانطلاق مع الحزب ، بمعنى مع عقيدته . ثم كلنا كنا موظفين . وكان علينا واجبات أخرى . ولكن ، حتى الآن ، عقيدة الحزب لم تُغْن ، بل بقيت عقيدة البعث كما هي ، بغض النظر عن المنطلقات النظرية للمؤتمر السادس ...

س : ... هنا سؤال يُطرح : ماذا أعطى الحزب حزب البعث في الفكر والفلسفة والأدب والشعر والقصة والفن . بمعنى آخر ، هل أنتج الحزب أدباء ، ومن هم ؟... شعراء ، ومن هم ؟... كتّاب قصة ، ومن هم ؟... لأنه هذا هو الإنتاج الفكري ، الإنتاج الفكري بالأشخاص الذين ينتجهم الحزب ، لكي يعبِّر عن أفكاره عن طريق القصة ، عن طريق الرواية ، عن طريق الشعر ؟...

ج : ما من أحد من أفراد الحزب كان روائياً . ما كان أحد من أفراد الحزب فناناً ...

س : أدهم إسماعيل كان رساماً وفناناً تشكيلياً بارزاً ...

ج : أدهم إسماعيل فنان سابق ، كذلك صدقي إسماعيل هو أديب أصلاً . لكن طوّع أدبه لخدمة أفكار حزبية ، كأنما كانت الأفكار أفكاره قبل أن يكون حزبياً .

س : هو كان حزبياً وعمره 16 سنة ، وهو من جماعة الأرسوزي ، من هذا الشباب ، الرعيل الأول في تأسيس حركة البعث العربي .

ج : يعني الأفكار هي أفكاره ...

س : ألا نستطيع أن نسميه أو أن نقول إنه عبَّر عنها في رواياته ، في قصصه ؟!...

ج : عبّر عنها ، طبعاً ، لكن لا لأن الحزب جعله أديباً ...

س : ألا نستطيع أن نقول ذلك ، فهو لديه موهبة أدبية ؟!...

ج : لأ ، يعني هو موهوب ، وكل واحد منا كان يملك موهبة معينة . كل منا أغنى الحزب بدرجة معينة . ولكن بصورة خاصة على مستوى النشر للعقيدة . إما على مستوى إغنائها وإما إيضاحها أو بيانها ، فكانت المحاضرات طبعاً التي يقوم بها أحدنا في مناسبة أو أخرى ، المقالات التي كان يكتبها سواء في جريدة الحزب أو في جرايد أخرى . هذه كانت تساعد ...

س : لا شك في ذلك ، لقد كان عندكم موهبة سابقة على الحزب وقبل أن تدخلوا الحزب .

ج : سابقة على الحزب ، ولكنها لم تغن الحزب إغناء فكرياً ، يعني لم ينضاف إلى فكر الحزب شيء ناشيء عن عمل إنساني .

س : مثلاً ، كان سليمان العيسى يسمى شاعر البعث . هل استطاع سليمان العيسى كشاعر أن يصيغ فكر الحزب صياغة شاعرية تعبِّر عن خلجات الحزب ، عن آمال الحزب ؟!...

ج : ... لا ، عبَّر عن آمال الحزب ، عن أهداف الحزب صياغة شاعرية ، عبّر عن عواطفه ، عواطف الحزب طبعاً ، لكن سليمان العيسى إنما هو شاعر قبل أن يكون بعثياً ، بداهة ، وقبل أن ينتمي إلى حركة البعث العربي هو بالفطرة موهوب بالشعر ...

س : كما أن سامي الدروبي كان موهوباً للكتابة كذلك ...

ج : وعبد اللّه عبد الدايم وغيره ، فهؤلاء جميعهم استخدموا مواهبهم، وهذه المواهب الكامنة، في خدمة آراء الحزب .

س : وبلورتها ضمن نطاق فكر الحزب .

ج : ضمن تعابير الحزب . ولكن ، كانت هي ذاتها تعابير الأستاذ ميشال عفلق أو الأستاذ صلاح الدين البيطار وإنما تعابير الأستاذين قد كانت أكثر تفوُّقاً . يجب الاعتراف بذلك : كنا نعرف بوضوح أن الأستاذ ميشال عفلق لا يُضاهى في التعبير عن فكره . ثم الفرق بيننا وبينه بالعمر مناسب، يعني بالنسبة إلي ، يفصلني عنه حوالي عشر سنوات . عشر سنوات ليست قليلة ، ليست قليلة أبداً . فهذه السنوات تكفي لأن نكون نحن توابعين له . وذهب إلى فرنسا عام 1928 تماماً وكذلك الأستاذ صلاح الدين البيطار . أنا ذهبت إلى فرنسا عام 1936 . إذاً ، هو أستاذي . هذا النوع من السبق ، لا يمكنه أن يحملني على الادعاء مباشرة بأنني أفضل منه في صياغة أفكار الحزب . هذه المَهمة كنا نتركها له وهو في باريس ، ولم نكن لنتركها مثلاً لوهيب الغانم ولا لجمال الأتاسي ولا لجلال السيّد . كانت كأنها " بضاعة خاصة " بالأستاذ ميشال عفلق بالدرجة الأولى وبالأستاذ صلاح الدين البيطار بالدرجة الثانية .

س : طيِّب ، هنا سؤال يطرح كذلك في هذا المجال : هل كان يسمح الأستاذ ميشال عفلق بشيء من الحرية لصياغة فكر الحزب ، صياغة تخرج عن وجهة نظره ؟...

ج : ... لا ... لا تخرج عن وجهة نظره ... هذا صح . لم يكن ذلك وارداً قط . بمعنى أن هذه مشكلة لم تُطرح على الأستاذ ميشال عفلق... وأنا رأيي في الأمور هذه (الأمور الفكرية والقومية) يديرها هو . وهذا لم يكن ليخطر في بال أي إنسان غير ذلك . الأستاذ ميشال عفلق ، بالعكس ، كنا نقبل آراءه بشكل تام ونصادق عليها بشكل سهل جداً ونصادق عليها بسهولة لا حد لها ، كأنها أفكارنا من قبل . مثلاً ، كان هناك سعد يانسون ، أخوه لفوزي يانسون ، هذا الشخص أيضاً ذكي . ولكن كان قليل الكتابة ، قليل المحاضرة ، إذاً كان ممن يسمونهم الأوتوريتيه ـ كريز autorité – grise يعني السلطات الخفية التي تؤثر بقوة ، ولكن من وراء الستار . هل صاغ مبدأ جديداً ؟... هل أضاف إلى فكر الحزب ؟... أضاف ماذا ؟... خَلَطه بأفكاره الماركسية ، خلطه بالمبادئ الشيوعية ، أي أن موقفه كان يسارياً ، أكثر بكثير مما كانها الحزب . مجموعة من الطلاب البارزين فكرياً وبارزين ثقافياً ، البارزين بمواهبهم ، استطاعوا أن يكوِّنوا حَلَقة تضيف إلى تأثير الأستاذ ميشال عفلق وتنمي تأثيره وتزيد رقعة تأثيره . ولكن دون أن تضيف شيئاً خاصاً أصيلاً إلى فكر الحزب .

س : منصور الأطرش ، شبلي العيسمي ...

ج : أنا شخصياً لا أعرف الأستاذ منصور الأطرش أنَّ له أي إضافة أصلاً ، لا أعرف أنه كتب يوماً ما شيئاً .

س : لأ ، ليس السؤال حول الكتابة ، وإنما دوره في دفع مسيرة الحزب السياسية ...

ج : ... نعم ، في إشاعة الحزب ، في نشره ، في دعمه ، ولكن بإغنائه فكرياً ، لأ ، مثلاً ، هناك رسالة لشبلي العيسمس حول " الوحدة " وحول " عناصر القومية "، يشار إليها أحياناً . لقد كتبها وهو لا يزال تلميذاً في الجامعة . إذاً هذه أفكاره لا تزال في بداياتها . ومع ذلك ، اُعتبرت كأنها وثيقة حزبية ، ويشار إليها الآن ، كما لو أنها مرجع حزبي مختوم بخاتم الحزب ، مع أنها لم تكن إلاّ من ضمن أفكار الحزب، يشارك فيها كل الناس ويتعلمونها من الأستاذ ميشال عفلق لا من غيره . بمعنى ما يمكن أن نقول : إن هذه هي أفكار ميشال عفلق وليست أفكار شبلي العيسمي . أما لو أن الأستاذ ميشال عفلق هو الذي صاغها ، إذاً ، لحسبنا بأنها تكون ذات أَلَق ، بمعنى لا نهاية له بالمقارنة ...

س : عبد الله عبد الدايم !!...

ج : عبد الله عبد الدايم أيضاً شخصية فكرية لامعة ، والآن يضيف أكثر فأكثر ... كل منا الآن بدأ يضيف . وبالفعل ، صار كل منا يفكر بكل القضايا تفكيراً جديداً . طبعاً قضية الوحدة ، لم تعد بالنسبة إلينا موضع دعوة ، صارت بالنسبة إلينا وبالنسبة للوطن العربي ضرورة . يعني إما أن يقبلها كضرورة ، يعني إما أن يقبلها الوطن العربي وإما أن يموت . لكن أنا شخصياً ، أفكر بأن الاشتراكية لم تعد للألق الذي كان لها ، لا بفكرتها ، ولكن لملازمتها لتطبيق لا يمكن إلاّ أن يؤدي بشرياً إلى خنق حرية الفكر وإلى إلزامها بالبيروقراطية وإلى جعل البيروقراطية إنسانياً تستفيد من سلطتها وتخدم ميولها ومنافعها أكثر مما تخدم الاشتراكية . وبالتالي تكون الاشتراكية عامل لا انطلاق أو جمود في التقدم لا عامل للتقدم . هذا هو الواقع . لذلك أصبحنا الآن نشك في كلمة الاشتراكية ، لا لأنها اشتراكية ، ولكن لأنها اقترنت بتطبيق جعلها فيه تكبت الحرية أو تُتبعها أو تؤدي إلى الديكتاتورية من نوع ما تهدم حق الناس جميعاً في الفكر ...

س : بالإضافة إلى فشلها في التطبيق ، على الصعيد الاقتصادي . ولو أنها نجحت على الصعيد الاقتصادي ، لكنا تغاضينا عن النواحي الأخرى .

ج : وسنتغاضى باستمرار ، لأنها كانت (مرحلة ضرورية)...

س : مهمة كثيراً هذه الإيضاحات ... الآن هنا أيضاً سؤال له طابع فكري ، في البدايات الأولى ، في رأيكم ، التيارات الفكرية والأيديولوجية التي أثَّرت في فكر الحزب أو في فكر مؤسسيه... كيف يمكن تحديد هذه التيارات الفكرية ، وما هي في رأيكم ؟... مثلاً ، ولزيادة في الإيضاح ، الفكر الفاشي ، النازي ، مفاهيم القومية الأوروبية هل أثَّرت جميعها في أيديولوجية البعث القومية ؟... التيارات الفكرية في فرنسا هل أيضاً أثّرت ؟... الفكر الإسلامي أثّر كذلك ، ما رأيكم ، أنتم الذين عشتم تلك مرحلة في حيويتها ؟!...

ج : الأستاذ ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار ، أمضيا من عام 1928 إلى عام 1933 في باريس . إذاً أمضيا خمس سنوات في فرنسا . الأستاذ ميشال عفلق ، على ما قلته سابقاً ، كان يملك اللغة الفرنسية وكذلك الأستاذ صلاح الدين البيطار . يعني ، لم يذهبا إلى هناك " فقيرين " (من حيث اللغة الفرنسية)، ذهبا إلى هناك مختمرَين . وبالتالي كانا يستطيعان أن ينهلا من الثقافة الفرنسية بسهولة وكانا متلازمين . بدا في ظرف معيَّن أن الأستاذ ميشال عفلق شيوعي. وأنا أظن أنني لو لم أكن بعثياً ، أو لو لم يوجد " بعث "، لكانت ميولي تتجه إلى الشيوعية . لكنني ، بالفعل ، لم أوافق على الشيوعية ، لأنها كانت تتمسك بالديكتاتورية الستالينية ، مثلاً ، بالدرجة الأولى، أي أنني عندما نشأت ، وعندما رأيت الشيوعية ، رأيتها بالثوب الستاليني. لم أكن أطيقها إطلاقاً . ثانياً ، كانت فكرة القومية، غائبة عنها. [هذه واضحة تماماً، وتحدثنا عنها] لقد تحدثنا عنها. وبالتالي الفكرة القومية، من أين جاءت ؟... لا شك في أن الفكر الفرنسي والفكر الأوروبي عامة ، الألمان طبعاً ، كان وارداً . فهذه الأفكار كلها ، أو هذه ثقافة قومية، كانت واردة في الثقافة الأوروبية. إذاً حملها الأستاذ ميشال عفلق وحملها الأستاذ صلاح الدين البيطار، كما حملناها نحن فيما بعد ، وقبل أن يستقر البعث استقراراً حزبياً . إننا ، كنا نحمل هذه الأفكار ونحن لم نعد ، أو لم ندخل في الحزب بعد . هذه الأفكار ، إذاً ، بنت ماذا ؟... طبعاً ، بنت ثقافة قومية فرنسية أو أوروبية قومية . هتلر ، موسوليني ، لا أظن أنهما كانا يؤثران فينا إطلاقاً . لأنه لا هتلر ، ولا موسوليني ، كانا يعجباننا

، بصورة خاصة ، بالديكتاتورية التي كانا يمارسانها . وكان شأنها ، شأن ديكتاتورية ستالين . فضلاً عن أننا كنا مصنَّفين ، مثلاً ، في إدارة الأمور للأمم المتخلِّفة جداً ، الميؤوس منها في نظر مثلاً هتلر ، و"الأخ" موسوليني كذلك كان لا يضطهد أحداً غير العرب ، لم يجد أحداً من يضطهده غير العرب بالتأكيد . كذلك كنا نكرهه تماماً . وصعب جداً أن نتأثر به. ذلك أنه يمكن أن نقول مثلاً : بيار الجميل تأثر به ، اعتباراً من عام 1936، تأثر به ، دُعيَ إلى برلين ، وبهذه الدعوة تكونت فكرة إنشاء حزب الكتائب ...

صدر من هذه السلسلة





